حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن عمر

أشرقت شمس الإسلام فأرسلت بأشعتها الى بيوتات مكة ، وكان من أول ما انفرج لها سقف آل الخطاب ، فأضاءت قلب فتى الفتيان عمر بن الخطاب فأصبح فاروق الاسلام ، وسرت منه سريان الكهرباء الى قلب ناشئه وفلذة كبده وأكرم أهله عليه : ابنه عبد الله بن عمر ، فآمن معه ولما يشب عن الطوق ؛ وقد اشتدت قناة الإسلام ، وعزت شوكته بهذه العناصر الجديدة التى دلفت اليه فى ظل الفاروق وحمايته ، وضاقت قريش بهذه العزة وتلك الحماية ، فتسعَّر حقدها ، وازداد بالمؤمنين أذاها ، حتى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، فكانت فتحا مبينا ؛ وهاجر عمر ، وتبعه من أهله ابنه عبد الله وسنُّه لا تعدو العشر ، وإذا نضال اللسان والحجة يتحول الى جهاد السيف والقوة ، ويخرج جنود الحق يقودهم رسول الله ، ويحدوهم الايمان الى غزوة النصر : الى بدر الكبرى ؛ ويتقدم عبد الله بن عمر فى أسنان أمثاله يعرضون أنفسهم على القائد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فيردهم لصغرهم ، فيرجع عبد الله ونفسه ــ على طفولته ــ تضطرم شوقا الى الجهاد ، فيرتقب الفرص ؛ وسرعان ما تقبل غزوة المحنة التى صهر الله بها نفوس المؤمنين ، واستخلص رجولتهم ، وطهر قلوبهم ، ومحص بطولتهم ، وأدبهم أكمل الأدب ، فينهض عبد الله فى غضارة شبابه ، وحماسة طفولته ، يعرض نفسه جنديا يجود بروحه فى سبيل دينه وعقيدته التى ولد فى أحضانها ، ونهد فى مهدها ، فيأبى رسول الله إلا الصبر ، لطراءة إهابه وصغر سنه ، فيعود عبد الله وفى نفسه ما فيها متربصا النُّهَز ، وكأنما هو فى تشوقه الى وقفة فى صفوف المجاهدين يدفع بالزمن دفعا ليتقدم به الى سن الجهاد حتى وقف به على سلم الخامسة عشرة من عمره ؛ وأقبلت على المجاهدين غزوة الخندق ، فتقدم اليها عبد الله يعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجس خيفة من الرد ، ولكنه فى هذه المرة انتصر وفاز برضاء القائد الأعظم أن يسلكه فى عقد الرجولة ، وينظمه فى سلك المجاهدين ؛ ومن يؤمئذ لم يعرف أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم كان من أحرص الصحابة على ملازمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعرف أحواله فى حركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، وإقامته وسفره ، والى جانبه أكابر أصحابه ؛ روى ابن القاسم ... مالك بن أنس رضى الله عنه قال : « أقام ابن عمر بعد النبى صلى الله عليه ...

ستين سنة يقدم عليه وفود الناس ، فلم يخف عليه شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ؛ وكان ابن عمر من أئمة الدين » . وسأل يحيي بن يحيي مالكا : هل سمعت المشايخ يقولون : من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا ؟ قال : نعم !

ولقد كان بعض أئمة التابعين يعدل بينه وبين أبيه ، وهذه منزلة رفيعة جدا ، حتى كان سلمة بن عبد الرحمن يقول : « مات ابن عمر وهو مثل عمر فى الفضل ، كان عمر فى زمان له فيه نظراء ، وكان ابن عمر فى زمن ليس له فيه نظير » .

وحقا لقد أوتى عبد الله بن عمر من المزايا والخصائص ما جعل حياته خصبة حافلة ، فملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحرصه الشديد على المتابعة فى كل شأن من شئونه ، وقرابة المصاهرة به ، ومكانه من نفس أبيه ، الى مكانة أبيه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، كل أولئك جعل لحياة عبد الله شانا عظيما فى الحياة الاسلامية ، فكان من أوسع الصحابة علما ، وأمائهم بالأحاديث النبوية ، وأقومهم بفهم القرآن .

وكان فى فقهه يمثل مذهب المحافظين المتبعين أكمل تمثيل ، وهو يرى أن جميع حركات النبي صلى الله عليه وسلم وسكناته مكفولة بالعصمة ؛ قال الزبير بن بكار : « كان ابن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأل من حضر من الصحابة إذا غاب عن قوله وفعله ، وكان يتبع آثاره فى كل مسجد صلى فيه ، وكان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض ناقته ، وكان لا يترك الحج ، وكان إذا وقف بعرفة يقف فى الموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان رضى الله عنه من أشد الناس اتقاء للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحذرا من الإقدام على الفتيا ، فقد روى أنه سئل عن شيء فقال : لا أدرى ، ثم قال : أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا فى جهنم ؟ تقولون : أفتانا بهذا ابن عمر !

وقد ذاق حلو الحياة ومرها ، فأقبلت عليه الدنيا حتى كان يضارب بالأربعين والخمسين ألفا. روى ابن الجوزى عن ابن عمير التيمى قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : شهدت جلولاء وابتعت من الغنائم بأربعين ألفا ، فقال عمر : ياعبد الله بن عمر لو انطلق بى الى النار كنت مفتدي ؟ قلت : نعم بكل شيء أملك ، قال : فانى مخاصم ، وكأنى بك تبايع بجلولاء ، يقولون : هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أمير المؤمنين ، وأكرم أهله عليه ، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهما أحب اليهم من أن يغلوا عليك بدرهم ، وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش ؛ ثم أتى باب صفية بنت أبي عبيد فقال : ياصفية بنت أبي عبيد : أقسمت عليك أن تخرجي من بيتك شيئا وإن كان عنق ظبية ! قالت : ياأمير المؤمنين ذلك لك ؛ ثم تركني سبعة أيام ، ثم دعا التجار فباع منهم متاعا بأربعمائة ألف ، فأعطاني

ثمانين ألفا وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفا الى سعد ، فقال : اقسم هذا المال فيمن شهد الوقعة ، فان كان مات منهم أحد فابعث بنصيبه الى ورثته .

ولكن الدنيا بإقبالها لم تكن لتأخذ من قلب عبد الله بن عمر حيّز ذرة ، بل كان معها أملك شباب قريش لنفسه ، وأبعدهم عن الميل للدنيا . يقول عبد الله بن مسعود : « لقد رأيتنا ونحن شباب متوافرون فما بيننا شاب هو أملك لنفسه عن الدنيا من عبد الله بن عمر » . ويقول جابر بن عبد الله : « ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر » . ويقول السدى : « رأيت نفرا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التى فارق عليها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن عمر » . ولهذا يقول سعيد بن المسيب : « كان ابن عمر حين مات خير من بقى ، ولو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر » .

وكان رضى الله عنه بالدنيا جوادا فى سبيل الله ، يؤثر الإنفاق بأحب شىء لديه ؛ روى أن عبد الله بن جعفر أعطاه فى مولاه نافع عشرة آلاف درهم أو ألف دينار ، فقيل له : ماذا تنتظر ؟ قال : فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو حر ! ومن مُثله العليا فى الإيثار ما رواه نافع قال : كانت لابن عمر جارية معجبة تدعى رمثة ، فاشتد عجبه بها فأعتقها ، وزوجها مولى له ، فأتت منه بولد ، فكان ابن عمر يأخذ الصبى فيقبله ثم يقول : واها لريح فلانة ! فقيل له فى ذلك ، فقال : سمعت قول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى نافع أيضا أن عبد الله اشتكى فاشترى له عنقود بدرهم ، فأتاه مسكين ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم ثم جاء به اليه ، فجاء السائل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم ، ثم أراد السائل أن يرجع فمنع ، ولو علم بذلك ابن عمر لما ذاقه .

وكان ابن عمر يتخادع فى الله لمواليه فيعتق الصلحاء منهم ، فعرفوا منه ذلك فكانوا يخدعونه بكثرة عبادتهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « من خدعنا فى الله قبلنا منه » . وروى زيد بن أسلم أن عبد الله مرّ براعٍ فقال : هل من جزرة ؟ قال : ليس هاهنا ربها ، قال : تقول له : إن الذئب أكلها ، قال : فاتق الله ! فاشترى ابن عمر الراعى والغنم وأعتقه ووهبها له ؟

صادق ابراهيم عرجون

التجديد فى الاسلام

— ٩ —

المجددون فى القرن الثانى الهجرى

١ — الإمام أبو حنيفة

١ — من هو أبو حنيفة ؟

هو الإمام الأعظم ، والحبر المقدم ، أول من دوّن علم الفقه ، ورتبه كتبا وأبوابا ؛ الذى أطبق العلماء على علمه ودينه ؛ اتخذه المسلمون حجة فيما بينهم وبين الله تعالى ؛ صاحب المذهب الذى اتبعه وأخذ به مئات الملايين من المسلمين ، وعبدوا الله بمقتضاه ، وحكموا به فى الأموال والدماء والأعراض ؛ وهو الذى يقول فيه الإمام مالك رضى الله عنه : لم أر مثل أبى حنيفة ، تالله لو قال إن هذه الأسطوانة من ذهب ، لأقام الدليل القياسى على صحة قوله . والذى يقول فيه الإمام الشافعى رضى الله عنه : الناس فى الفقه عيالٌ على أبى حنيفة . والذى يقول فيه الإمام ابن المبارك : من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى لا يخاف ، ولا يكون فرط فى الاختيار لنفسه . والذى يقول فيه العلامة ابن خلدون : أبو حنيفة النعمان ، مقامه فى الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلدته ، خصوصا مالكا والشافعى .

٢ — نشأة أبى حنيفة وعصره وبيئته :

نشأ الإمام بالكوفة ، وولد بها فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، فى زمن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . ولقد عاش أبو حنيفة فى النصف الأخير من القرن الأول ، قرن الصدر الأول ، كما عاش نصف القرن الثانى ، حتى توفى سنة ١٥٠ هـ

فعاصر التابعين ، وكان من كبارهم ، وعاصر الدولة الأموية من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ورأى كيف ألفت الجمعية السرية ، وكيف عملت على نقل الخلافة من الأمويين الى العباسيين ؛ وعاصر الدولة العباسية فى مستهلها ؛ وعاصر من خلفائها السفاح ، والمنصور ؛ وعاصر الحوادث التى حدثت من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد المنصور . وعاش بالكوفة وبغداد ، وكانتا زاهيتين زاهرتين بمجالس العلم ، وأندية الأدب ، وكان بهما عدد لا يحصى من العلماء ، والفقهاء ، والحكماء ، والأدباء ، والشعراء ، والنحاة ، وغيرهم ؛ فلقد عاش الإمام أبو حنيفة إذاً فى أفضل البيئات الاسلامية الحافلة بأعاظم الرجال ، وأكابر العلماء ، والعاملة بتعاليم الإسلام وثقافته وفضائله ، تلك الفضائل التى تكوّن أفضل الرجال ، وتجلب لمن اتبعها سعادة الدنيا والآخرة .

فى ذلك العصر ، كان المسلمون قد اتصلوا بغيرهم من الأمم ، وشرعوا يعلمونهم الدين الاسلامى ، واللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاتصال بين الأمة الاسلامية الممتلئة نشاطا وإيمانا وبين الأمم القديمة ، ذات الحضارات الخصبة العظيمة : نشاط عقلىّ عظيم ؛ وكان العراق من أهم مراكز هذا النشاط ؛ ولعل من الأسباب التى دعت الى هذا النشاط ، كما قال أحد الباحثين ، أن العراق كان مركز المعارضة السياسية لبنى أمية ، يثيرها شيعة بنى هاشم من ناحية ، والخوارج من ناحية أخرى ، ويثيرها عربها أنفسهم لأنهم لم يكونوا من قريش ، ولم يكونوا من مضر ، وكانوا يطمعون ألا تكون السلطة مقصورة على القرشيين ، أو المضريين ، بل تكون فى العرب جميعا . فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة ، كانت الصلات قد استوثقت بين العرب ، وبين غيرهم من الأمم الأخرى ، وكان الذين اتصل بهم المسلمون قد أخذوا يتقنون العلوم الاسلامية ؛ وكان الموالى قد بلغوا حظا عظيما من النشاط فى العلوم الاسلامية على اختلافها ، وفى كل ما كان يرويه العرب ، ويتوارثونه عن آبائهم فى جميع أنواع المعارف ؛ وكانت الأحزاب السياسية فى العراق قد بلغت من الخصومة مبلغا كبيرا ، وانتهت من التضارب بالسيف والسنان ، الى نتيجة طبيعية : وهى التناضل بالقلم واللسان ، وأخذت تنظم آراءها ، وتدافع عنها فى المساجد والمجالس ؛ وكان أئمة المسلمين من رؤساء الأحزاب ، يجتمعون فى مساجد العراق ، خصوصا فى مساجد الكوفة والبصرة ، كل يعرض مذهبه ، ويناظر فيه ، ويدافع عنه ، ويرد على خصومه ؛ وكان الناس يختلفون الى هؤلاء الأئمة يسمعون منهم ؛ ففى هذا العصر ، وفى هذه البيئة ، نشأ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه وأرضاه ، فكان لهما من الأثر فيه ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

٣ — هل هو من الموالى أو من غيرهم ؟

(١) وردت نصوص تاريخية صحيحة يظهر منها أن الإمام أبا حنيفة كان من الموالى ، كما وردت نصوص أخرى تدل على أنه ليس منهم . ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نذكر نصوص الطرفين : فأما الذين قالوا إنه من الموالى ، فنهم يعقوب بن أبى شيبة بن الصلت ، فقد قال : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، مولى لبنى تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . ومنهم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضى الذى يقول : سألت ابن اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : سُبى ثابت أبو أبى حنيفة ، من كابُل شاه ، فاشترته امرأة من بنى تيم الله ابن ثعلبة ، فمنّت عليه بالعتاق ، فولاؤنا لها . ومنهم عبد الرحمن المقرى القائل : قال لى أبو حنيفة : ممن أنت ؟ قلت : من أهل دورق ؛ قال : فما يمنعك أن تعتزى الى بعض أحياء العرب ؟ فهكذا كنت أنا ، حتى اعتزيت الى هذا الحى من بكر بن وائل ، فوجدتهم حى صدق . وأما الذين قالوا إنه ليس من الموالى ، فنهم إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة ، فقد

قال : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت ، بن النعمان ، بن المَرْزُبان ، من أبناء فارس ، من الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط ! ومنهم صالح بن الحسن العابد الذى يقول : حسدت العرب أبا حنيفة لأنه لم يكن منهم ؛ وحسده الموالى لأنه لم يكن منهم . فقيل له : يا أبا الفضل ، ممن كان أبو حنيفة ؟ فقال : سأله رجل يوما فقال له : من أنت ؟ من ولدك ؟ فقال : أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ممن منّ الله علىّ وعلى والدىّ بالاسلام ، أنت فى حل .

(٢) وعلى كل حال ، فالامام أبو حنيفة عربى المولد والنشأة والثقافة ؛ وإن كان جدوده من فارس ، ولا غضاضة فى ذلك ؛ فقد سوّى الإسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فهى أعلى الأنساب ، وأقوى الأسباب ، فشرف العلم والتقوى فوق شرف النسب .

وكم للموالى ، وعلماء الفرس فى الإسلام من فضل ، وكم لهم من مآثر ، وكم خدموا الاسلام وعلومه ، قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال : يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ؛ فقال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت : نافع مولى ابن عمر . قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن أبى كثير . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصرى وابن سيرين ؟ قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : موليان . قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعى . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : عربى . قال هشام : لولا قولك عربى ، لكادت نفسى تخرج » .

وعلى الجملة فحملة العلم فى الاسلام أكثرهم من الموالى والعجم ؛ وقد علل ذلك ابن خلدون فقال : « السبب فى ذلك : أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة ، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ؛ وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ؛ فلما بعد النقل احتيج الى وضع التفاسير القرآنية ، وتقييد الحديث ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات ، واحتاجت الى علوم أخرى هى قوانين العربية ، فصارت العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت

فى جملة الصناعات ، وهى من منتحل الحضر ؛ والعرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ؛ والحضر لذلك العهد هم العجم ، أو من فى معناهم من الموالى ، وأهل الحواضر الذين هم تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصناعات والحرف ؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ؛ فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، والفارسى من بعده ، والزجاج من بعدهما ؛ وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ؛ وكان علماء الأصول كلهم عجما ؛ وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين ؛ ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ؛ وظهر مصداق قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء ، لناله قوم من أهل فارس » . ومن هذا يتبين أنه لا غضاضة مطلقا إذا كان الإمام الأعظم من الموالى ، أو فارسى الأصل ، بعد أن ظهر أنه لم يقم بتدوين العلم وحفظه إلا الموالى والأعاجم ، وبعد أن سوى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لمخلوق على مخلوق إلا بالتقوى والعمل الصالح ؟

السيد عفيفى

حكم متفرقة

قال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والجاهل لا يوافق الجاهل ولا العاقل ؛ مَثَل ذلك : المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ، فأما المعوج فانه لا ينطبق على المعوج ولا على المستقيم .

دخل خالد بن صفوان الخطيب المشهور الحمام ، فسمع رجلا يقول لابنه وهو يريد أن يعرِّف خالدا بلاغته : ابدأ بيداك وثنِّ برجلاك . ثم نظر الى خالد وقال له : يا ابن صفوان هذا زمان قد ذهب أهله . فقال له خالد : بل ما خلق الله له أهلا !

قال أبو الأسود الدؤلى : إن أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا .

وقال أفلاطون : ما ألمت نفسى إلا من ثلاث : من غنى افتقر ، وعزيز ذل ، وحكيم تلاعبت به الجهال .

وقال أرسطو : الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقا لغيره ؟

وأحسن ما قيل فى ذم الجهل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وكل امرئ لم يحى بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

الكلام والمتكلمون

— ٢ —

المعــــتزلة

ظهورها ومنشا تسميتها :

أخفتَ الاضطهاد صوت أنصار حرية الفرد زمنا ، فظلت البيئات العلمية تتناقل هـذا الرأى وتتجادل سرا ، حتى دخل يوما رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين : لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفـرون أصحاب الـكبائر ، والـكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ؛ وجماعة يرجئون أصحاب الـكبائر ، والـكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل — على مذهبهم — ليس ركنا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الـكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ؛ فـكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟ فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول : إن صاحب الـكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة .

هذه هى الأقصوصة الشهيرة التى يرجع اليها مؤرخو الحركة العربية نشأة المعتزلة وتسميتها . وقد ردها الأستاذ ه . س . « نينبرج » فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فصرح بأنه يستبعد أن يتباهى زعماء المعتزلة باسم وضعه لهم خصومهم ورموا به الى أن هؤلاء الزعماء قد حادوا بآرائهم عن الطريق السوى ، كما أعلن أهل الحديث هذه التسمية فيما بعد ليرفعوا من شأن الجماعة ويحطوا من شأن خصومهم . وعند هذا المستشرق أن منشأ هذه التسمية سياسى ، وأن واصلا ليس أول من سمى معتزلا كما تزعم الأقصوصة السابقة ، وإنما هذا الاسم يصعد فى تاريخ الاسلام الى سنة ٣٥ ﻫ حيث بدأت الفتنة السياسية ، وامتنع عدد من أكابر الصحابة عن مبايعة على ، وبايعه عدد عن طيب خاطر ، وعدد من وراء قلوبهم ، وظل كثير منهم على الحياد ، فتناقلت الألسنة أنهم اعتزلوا الخصومة القائمة ، ثم أخـذت هـذه الـكلمة تتطور وتصطبغ شيئاً فشيئا بالصبغة السياسية ، الى أن كوّن سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، حزب المحايدين ، ورفضوا علنا مقاتلة علىّ كما رفضوا القتال فى صفه ، وإن كانوا قد أعلنوا أنهم معه بقلوبهم ، وأنهم يجلونه وينقون فيه ، فأطلق عليهم اسم المعتزلة ، وكان ذلك أساساً لتسمية المعتزلة الذين أتوا بعد ذلك .

ويعلق ذلك الأستاذ المستشرق على هذا بقوله : وإذاً فمعتزلة السياسة قد سبقوا معتزلة التوحيد، والأولى هى التى كونت الثانية ، لا سيما وأن مسألة المنزلة بين المنزلتين التى هى سبب الاعتزال النظرى لم تكن إلا مسألة سياسية تتعلق فى عمقها ببعض مشاهير الأشخاص الذين ساهموا فى القتال ، وليس أدل على ذلك من الأمكنة التى تشغلها شخصيات على وعائشة وطلحة والزبير بين محاورات واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهما من زعماء المعتزلة . وفوق ذلك فان هؤلاء الزعماء السياسيين كانوا فى نظر أولئك العلماء المعتزلين مؤمنين أتقياء ، ولكن الحرب التى اشتعلت بينهم شطرتهم شطرين متعاديين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، لأن الحق لا يتعدد . وهذا يقتضى أن يكون أحد الفريقين آثما ، ولكننا لا نعرف أيهما الآثم ، فينبغى أن يترك أمره لمن يعلمه . أما نحن فواجبنا أن نقف على الحياد ، وأن نحكم بأن أحد الفريقين فاسق لا تقبل شهادته ، بل إن عمرو بن عبيد — فيما يرى أهل الحديث — كان أقسى على هذين الفريقين من واصل ، إذ صرح بأن كل من اشترك فى واقعة الجمل فاسق لأنه ارتكب كبيرة ، ولما كان قد تقرر أن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتى الكافر والمؤمن ، فقد ظل كل هؤلاء المحاربين بين الكفر والإيمان . وبما أن هؤلاء المحاربين هم إما أسلاف العلويين أو أسلاف الأمويين ، فقد وجب أن يكون أخلافهم على باطل . ومن هذا يتضح أن نشأة الاعتزال النظرى كانت أول الأمر دعاية للعباسيين قبل استيلائهم على العرش ، ولهذا حينما ظهرت الدعوة العباسية كان أنصارها ينادون علنا بوجوب اعتناق آراء المعتزلة ، وأن هذه الآراء ظلت آراء البلاط العباسى زهاء قرن كامل .

وكما أرجع هذا المستشرق نشأة الاعتزال الى السياسة ، أرجع كذلك إليها نشأة الجبرية ، حيث رأى أن جهم بن صفوان الذى كان ينادى بالجبرية المطلقة ، كان من دعاة الأمويين ، دفعوه الى مخاصمة المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الفرد التى كانت متناقضة مع عقيدة ملوك بنى أمية ، ومتلائمة مع أنصار الانقلاب المنتظر .

ونحن لا نستبعد أن يكون كل ذلك حقا ، لأن تعذيب معبد ثم قتله بأمر عبد الملك ابن مروان ، وصلب أبى مروان الدمشقى على باب دمشق بأمر هشام بن عبد الملك ، وضعف هذه الحركة فى عهد الأمويين ، وانتعاشها وتباهى أنصارها بها فى عصر العباسيين ، وكذلك صداقة أبى جعفر المنصور لعمرو بن عبيد وشهادته له بالسمو والنزاهة فى قوله : « كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد » . واحتضان المهدى والرشيد والمأمون لرؤساء المعتزلة فى عصورهم ، وإعلان المأمون فى غير مواربة أنه يدين بالآراء الاعتزالية ، وتعذيبه بعض الفقهاء وأهل السنة الذين لم يدينوا بآرائه . كل ذلك يدل فى وضوح على صحة ما ذهب إليه هذا المستشرق .

غير أن العباسيين لم يكادوا يستولون على العرش حتى التفتوا الى العلويين ليقضوا عليهم كما قضوا على الأمويين . وكانت هـذه الحركة أيضا فى حاجة الى دعاية ، فأوحوا الى رؤساء المعتزلة أن يخاصموا الشيعة ويشهروا بهم ، فأطـاعهم أكثر معتزلة البصرة — وعلى رأسهم عمرو بن عبيد — من غير قيد ولا شرط ، وشذ عدد آخر عن هذا الأمر ، وأبى أن يكون لعبة فى أيدى السياسة ، فأعلن أنه لا يذم إلا المفرطين فى التشيع ، أما المعتدلون فهم على حق . فـكان ذلك أحد أسباب اختلافات المعتزلة وتفرقهم الى هذه الفرق التى سنشير إليها هنا .

فرقها المختلفة :

أوصل المؤرخون المعتزلة الى عشرين فرقة ، هى :

(١) الواصلية أصحاب واصل بن عطاء . (٢) العَمرية أصحاب عمرو بن عبيد . (٣) الهذيلية أصحاب أبى الهذيل العلاف . (٤) النظـامية أصحاب ابراهيم بن سيار النظـام . (٥) الأسوارية أتباع الأسوارى . (٦) الاسكافية أتباع أبى جعفر الاسكاف . (٧) الجعفرية أصحاب الجعفرين : ابن مبشر وابن حرب . (٨) البشرية أصحاب بشر بن المعتمر . (٩) المزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزدار . (١٠) الهشامية أصحاب هشام بن عمرو الفوطى . (١١) الصالحية أصحاب الصالحى . (١٢) الحابطية أتباع أحمد بن حابط . (١٣) الحدبية هم أتباع فضل الحدبى . (١٤) المعمرية هم أصحاب معمر بن عباد السلمى . (١٥) الثمامية هم أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى . (١٦) الخياطية أتباع أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط . (١٧) الجاحظية هم أنصار عمرو بن بحر الجاحظ . (١٨) الـكعبية هم أتباع أبو القاسم بن محمد الـكعبى . (١٩) الجبائية هم أنصار أبى على الجبائى . (٢٠) البهشمية أنصار أبى هاشم (١) .

نبذة من تاريخ مدارسها :

لم يكد القرن الثالث يحل حتى كان المعتزلة قد كونوا مذاهب ذوات صبغات خاصة تمـكنها من أن تجابه خصومها مجابهة الند للند ، وأسسوا لهم مدارس خصبة لم تلبث أن أزهرت وآتت ثمارها فى البصرة وبغداد والقاهرة وسوريا والأندلس ، وكان من الطبيعى أن تنتج من هذه الحركة القوية مجادلات واختلافات ، وأن تتفرع من كل مدرسة فروع متباينة فى آرائها العلمية ونزعاتها السياسية . وهذا هو الذى حدث بالفعل .

ففى البصرة مثلا : أنشأ يوسف بن عبد الله الشحام ، وأبو على الأسوارى وآخرون ، دعاية كبرى لمذهب أبى الهذيل ، كما قام عباد بن سليمان بمناصرة مذهب الفوطى ، وإبراهيم بن إسماعيل

(١) انظر صفحة ٥١٤ وما بعدها من المواقف للايجى ، وصفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب الشهرستانى ، وصفحة ٤٠ وما بعدها من كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام فخر الدين الرازى .

المعروف بابن علية بمناصرة مذهب الأصم . ثم انفرد النظام من بين تلاميذ أبى الهذيل فأسس مذهبه الخاص الذى كان من دعاته فيما بعد : عمرو بن بحر الجاحظ . وفى النصف الأخير من القرن الثالث كان أبرز معتزلى البصرة الجبائى الذى أثرت مدرسته فى كثير من شباب عصره ، ولكن لم يكد القرن الرابع يبتدئ حتى تفوقت عليها مدرسة ابنه أبى هاشم الذى كان من تلاميذه أبو عبد الله الحسين بن على البصرى المتوفى فى سنة ٣٦٩ هـ — سنة ٩٧٩ م ، وأبو الحسين الأزرق التنوخى المتوفى فى سنة ٣٧٧ هـ — سنة ٩٨٧ م ، وأبو إسحاق ابراهيم بن عياش البصرى وتلميذه القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذانى الذى ارتحل فى سنة ٣٦٠ هـ الى الرى وأسس فيها مدرسة هامة ، ثم توفى فى سنة ٤١٥ هـ — سنة ١٠٢٤ م

وفى بغداد أسس بشر بن المعتمر المتوفى فى سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م أول مدرسة اعتزالية فى تلك الحاضرة . وقد خالف مبادئ العباسيين وتشيع لعلى ، فاضطهده هارون الرشيد ، ولكن المأمون الذى كان يقول بتفضيل علىّ على أبى بكر قد منح هذه المدرسة حمايته ومساعدته ، فتقوت وكثر أنصارها الأذكياء الذين نخص منهم بالذكر ثمامة بن أشرس المتوفى فى سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م ، وقد تفرعت من هذه المدرسة فروع أخرى اتفقت فى بعض المبادئ واختلفت فى البعض الآخر . ومما اتفقت فيه القول بخلق القرآن ، والحملة العنيفة على خصوم ذلك الرأى . وهذا هو أحد أسباب حماية المأمون لهذه المدرسة بفروعها المختلفة ، لأنه كان من أنصار القول بخلق القرآن . غير أن هذا الرأى كان شؤما على أصحابه ، إذ أن المتوكل الذى لم يكن يدين به هجرهم بين أيدى خصوم قساة حملوا عليهم وشهروا بهم ، كابن الراوندى الذى ترك الاعتزال فى النصف الأخير من القرن الثالث والتحق بالرافضية المغالية ، وكتب ضد المعتزلة نقدا عنيفا عزا إليهم فيه آراء لم تدر لهم بخلد ، فبرهن بذلك على بعده عن النزاهة والإنصاف .

ومن المدارس الاعتزالية التى نشأت فى بغداد مدرسة عيسى بن صبيح المزدار ، وكان معاصرا لبشر بن المعتمر ، ومدرسة الجعفرين : جعفر بن بشر المتوفى فى سنة ٣٢٤ هـ — سنة ٨٤٨ م ، وجعفر بن حرب المتوفى فى سنة ٢٣٦ هـ — سنة ٨٥٠ م ، ومدرسة محمد بن شداد المسمعى زرقان المتوفى فى سنة ٢٧٨ هـ — سنة ٨٩١ م ، ومدرسة أبى الحسين عبد الرحيم ابن محمد الخياط المتوفى فى نهاية القرن الثالث ، والذى كان فيما يظهر أعلم أهل عصره بتاريخ المعتزلة ، كما يشهد بذلك كتاب « الانتصار » ، ومدرسة أبى بكر أحمد بن على الأخشيد المتوفى فى سنة ٣٢٠ هـ — سنة ٩٣٢ م ، ومدرسة أبى القاسم عبد الله بن أحمد البلخى الكعبى تلميذ الخياط الذى بدأ مذهبه فى بغداد ثم ارتحل الى نسف فأسس فيها مدرسته الخاصة ، وتوفى بها فى سنة ٣١٩ هـ — سنة ٩٣١ م .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

البناء الاساسى للاسلام

بقلم Edwin E. Calverley

نقلا عن المجلة الملوكية لآسيا الوسطى

تستعمل لفظة (إسلام) ومشتقتها (مسلم) فى أربعة معان مختلفة ، لكل منها مدلولها التاريخى. وقد راج استعمال هذه المعانى الأربعة فى الكتب الانجليزية ، وإن كانت لم تدخل بعد فى قواميس هذه اللغة .

ففى الناحية الأولى : يستعمل اللفظان بمعنى دينى عام للدلالة على الخضوع والتسليم لله ، وهذا المعنى راعاه كل من المستشرقين (Sale) و (Roawill) و (Palmer) فى ترجمة القرآن .

ولقد لفت النظر بحق الى هذا الإطلاق العام ، ولكن ليس صحيحا أن القرآن لا يحتوى على نص طائفى .

ومن الناحية الثانية . يستعمل اللفظان فى القرآن بمعنى شامل للدلالة على الدين الواحد الحق الذى أوحى به الله الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباينة ، عن طريق رسله وأنبيائه المتعاقبين .

وعلى هذا التفسير يمكن اعتبار اليهود والصابئين والنصارى الخ مسلمين ، وديانتهم الاسلام . ويعتبر هذا تفسيرا شاملا . وقد ذاع بين جماعات من المصلحين الحديثين فى تركيا والهند وغيرهما من الذين يريدون أن يعتبروا أنفسهم مسلمين من حيث الديانة ، ولكنهم يرفضون التسليم بالقوانين واللوائح التى يرجع إليها أتباع النبى فى شئونهم الدنيوية .

وفى الناحية الثالثة : يطلق لفظ (إسلام) على القيام بالواجبات الدينية المطلوب من المسلمين قاطبة « تأديتها » . وعلى هذا الاعتبار يكون لفظ (إسلام) مرادفا للعبادات (الخمس) ، ومرتبطا أولاً (بالإيمان) بقواعده الستة المطلوب من كل مسلم التصديق بها ، وثانيا (بالإحسان) الذى يحض على عمل الخير المفروض على كل مسلم مراعاته .

وفى الناحية الرابعة : يطلق لفظ (إسلام) على ذلك النظام الدينى بحذافيره الذى أسسه محمد ، والعمل على مقتضاه .

وعلى هذا يكون الاسلام مرادفا للفظ (مسلمين) ، ويصبح له معنى طائفى لا شك فيه .

وقد حصرنا بحثنا فى هذا المقال على الاسلام بمعناه الرابع (الأخير) إذ هو الشائع والمقصود عادة من هذا الاصطلاح ، لأننا إذا ذُكر الاسلام تتذكر الديانات العالمية الأخرى كالنصرانية والبوذية والهندوسية وما أشبهها .

ولكننا إذا وضعنا الديانة الاسلامية ضمن الديانات العالمية الأخرى ، وجب أن لايفوتنا أن نعلم أن الاسلام كدين عالمى ، ينطوى على معان أكثر مما تظن الشعوب الغربية الحديثة عندما يستعملون كلمة الدين .

فللعالم الحديث طابعان خاصان يتميز أحدهما عن الآخر : أحدهما يقسم الحياة الى قسمين : دينى ودنيوى . والثانى يقصر السلطة الدينية على التأثير النفسانى . لهذا ننظر نحن الى الدين كناحية من نواحى الحياة الأخرى ، مثله كمثل الناحية أو المصلحة الدنيوية التى تتفرع منها بالتالى نواح متعددة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصادية .

أما الإسلام فليس هو مجرد ناحية من نواحى الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية شأنه شأن الأديان الأخرى فى البلاد الشرقية ؛ فهو يدبر اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطئ الذين وصفوا الاسلام بأنه (الجامع) . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الاسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمدا مع علاقته بالله — جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة .

فأول ما تلقاه من الوحى جعله رسولا ونبيا وداعيا من الله الى عباده ، لا يشاركه أحد فى قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم الى مافيه صلاح شئونهم الدينية والدنيوية . وقد غيّر قبلة الصلاة طبقا للوحى ، فحوّلها من بيت المقدس الى مكة . وكثيراً ما كان يتلمس الوحى والإلهام فى إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضة ، وقد نزلت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية .

ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا (محمديين) أو مسلمين ، وشايعه تلاميذه وأصحابه ومن قلدهم وتابعهم فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية والسياسية ، وتمسكوا بعبادته وقلدوه فى كل أعماله ، وكان تقليدهم له مبنيا على القرآن ، وتوسع فيه الحديث . ومع ذلك فما كان لهم أن يقلدوه فى كل شىء . ونكتفى هنا بالإشارة الى مثل واحد (وسيأتى غيره فى سياق الكلام فى هذه الرسالة) : ذلك أن الدين قد أباح للرجل الاقتران فى وقت واحد بعدد من الزوجات جعل حده الأقصى أربعا . غير أن الحد الأقصى للنبى غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان أصحابه يطيعونه فى كل ما يأمرهم به . فقد أسس جماعة جديدة ، وأصبح هو القائد والمدير لمن أسلم ، يرشدهم ويسوسهم فى أمورهم المنزلية والاجتماعية والمدنية والدينية ، يؤيده الله فى قيادته ونبوته؟

محمود شاهين

(مجلة الأزهر) :

أتينا على ما كتبه المستر إدوين ا . كلا فيرلى فى معنى الاسلام ، وقد عربه حضرة صاحب العزة محمود شاهين بك ، وسنأتى على بقية ما كتبه فى بنائه السياسى والاجتماعى والدينى فى الأعداد المقبلة مع التعقيب عليها ، إن شاء الله ، كما نفعل فى هذا الفصل اليوم .

لا بأس بالتقسيم الذى ذكره المستر إدوين فى نواحى الاسلام ، ولكنه فى الناحية الثانية من معانى الاسلام ، وهى « دلالته على أنه الدين الواحد الحق الذى أوحى الله به الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباينة » ، لم يأت الكاتب فيها بالبيان الذى يقتضيه هذا المقام ، وهو أخص مدلولات الاسلام ، وأولاها بالنظر والاعتبار ، لأنها هى وحدها التى جعلت منه دينا عاما للبشرية بأسرها ، وهى التى كانت سببا فى قوة سريانه فى النفوس ، وسلطانه على العقول ، ولا تزال ذات التأثير الكبير فى لفت الأنظار اليه ، وجمع القلوب عليه .

ألا ترى أنه يوجد فرق عظيم بين أن يحسب الناس الاسلام واحدا من الأديان السماوية يدعو الى المعروف وينهى عن المنكر ، مشاركا فى هذه الخصائص جميع الأديان ، وبين أن يعتبروه دين الله الأقدم الذى أرسل به جميع رسله فى خلال العصور ، ثم أعاد إنزاله على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فى الزمان الأخير ، ليخلص الناس مما وقعوا فيه من الضلال فى العقائد ، والشطط فى الشرائع ، وما بلوا به من شرور التشبيه والتعديد فى ذات الخالق ، ببعضها ، ومن الخلط والخبط فى القواعد ، ومن طغيان التأويلات والشروح على الحقائق ؟

فبالاعتبار الأول لا يكون للاسلام ميزة على الأديان ، ولا لإنزاله من موجب فى نظر الانسان . ولكنه بالاعتبار الثانى تكون له مهمة عالمية عالية ، وهى إعادة الوحى الإلهى الأول الى صورته الصحيحة ، خالصا من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ اليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد الى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعبلات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى مترددا بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركا ما يترجح عنده أنه من الموضوعات البشرية .

فالاسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحا عاما للأديان ، وموحدا لها ، ليصبح للانسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسلمات المنطقية لا تتعدد لدى جميع أفرادها .

والذى يقرره الاسلام فى هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الاسلام ، أى الاستسلام لإرادة الله ، والتخلى عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع ما يأمر به الله ، وهو لا يأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة ، ويصلح به أمر الاجتماع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .

فإن حاجوك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهىَ لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين (يريد بالأميين العرب) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

ثم بيَّن الله أن هذا الدين هو دين الله الأقوم ، وهو العروة الوثقى الذى تجتمع عليه الانسانية فى وحدة لا انفصام لها ، وأنه لامعدى عنه للعالمين أجمع ، قال تعالى مستنكراً فعل من يحاول أن يتخذ غيره دينا له : « أفغيرَ دين الله يَبغُون وله أسلمَ مَن فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

ثم ذكر الكتاب أن من الناس من يحاول فصم عرى الانسانية فيؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض ، تعصبا لقومية ، أو مشايعة لنزعة مذهبية ، منبها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقا ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

من هنا يتبين كل قارئ أن دين الله من حيث هو واحد لا يتعدد ، وأن رسله يعتبرون رسلا للعالم كافة لا لأمة دون أخرى . فيجب الايمان بهم جميعا لتتحقق الوحدة الدينية للانسانية بأسرها . وتجلية هذه الحقيقة حق تجليتها يضع الاسلام فى الموضع الذى أراده الحق له ، ويرفعه الى المكانة التى هى مكانته ، ويدفع بالأمم الى تبين حقيقته ، وتَعَرُّف صحة طريقته ، وليس ذيوعه فى العالم كافة بحاجة الى أكثر من هذا ؛ فان الناظر فيه لن يفوته أحد أمرين : وهما إما أن يجد فيه مثله الأعلى فيدخل فيه ، وإما أن يعتقد اعتقادا جازما بأن المستقبل كله له ، وأنه سيرث الأديان جميعا فلا يوجد فى الأرض دين غيره ، وهو إن لم يبلغ هذا الشأو بعد ، فسيبلغه يوم تخلص البشرية من أوهامها ، وتتجرد من موروثاتها ، وليس هذا اليوم ببعيد ، فان العلوم الكونية تقوم بهذه المهمة التطهيرية منذ ثلاثة قرون .

فاذا فات المستر إدوين لفت النظر الى هذه الحقيقة بعد بيانها على الوجه الذى تقدم ، فقد قمنا به ، وله الشكر على أن أتاح لنا هذه الفرصة .

محمد فريد وجدى

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

— ٦ —

سواء أكانت تلك المناظرة التى جرت بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ، وما استتبعها من بعث وفد من وجوه العرب ليقوم بمهمة الإعلان عنهم ، كما رأيت فى المقالين السابقين ، ممعنة فى الصحة أم مسرفة فى البطلان ، فانها تدل فى صراحة ومن غير التواء على أن التعصب للجنس طبيعة لا تحول ولا تزول . ذاك لأن المخترع لهذا ولأمثاله يلزم نفسه خطة المحاكاة الدقيقة التى تنم عن روح العصر الذى يحاكيه ، وتتحدث عنه كأنها وقعت فيه ؛ وعلى غرار هذا نهج رواة الشعر الذين اشتهر عنهم أنهم يقرضون القصيد المعجب الرائق ، وينحلونه أعلام الشعر الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، لإشباع نهم خاص فى مشاربهم ، وإرضاء نزعة معلومة فى نفوسهم ! !

ولما كانت روح الاسلام قوية غلابة فى عصره الأول ، لم يظهر تعصب من الجانبين فى الصورة الشائنة التى ظهر بها فيما بعد .

ومما يدل على أن العاطفة الجنسية ، وإن كانت كبتتها أصول الاسلام العالمية ، بقيت فى أعماق النفوس حية لم تمت ، ما رواه بعض المؤرخين من أن طائفة من أصحاب علىّ مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين : أعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس ؛ فقال لهم : أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور ؟ !

فذلك يدل فى غير مواربة على أن قادة الرأى فى عصر الاسلام الأول ، أخذوا بهذا الأصل القيم ، وجروا عليه ، فضربوا بذلك مثلا أعلى بقى الى اليوم علما على سمو الاسلام وصلاحيته لأن يكون دينا لجميع البشر .

فلما كان الحكم الأموى ، وأصاب النفوس بعض الوهن فى الدين ، رفع العرب عقيرة العصبية ، وجأروا بصوتها ، ونادوا بامتيازهم على جميع الأمم .

والى القارئ الكريم بعض الشواهد التى تؤازر ما نقول وتوضحه :

نزل جرير بقوم من بنى العنبر ، فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكم ... رِفد القِرى مفسد للدين والحسب
قالوا : نبيعُكه بيعا فقلت لهم : ... بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

ففرق فى المعاملة بين العرب والموالى ، وقد حرم الاسلام هذه التفرقة .

وروى أبو الفرج فى أغانيه قال : إن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى الى المدينة ، وواليها يومئذ ابراهيم بن هشام

ابن إسماعيل ، فشكا اليه ، فأرسل الوالى الى المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق لحيته ورأسه وحاجبيه ؛ فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد

ومنها :

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد
فأى الحق أنصف للموالى من اصهار العبيد الى العبيد ؟

وهذا كما لا يخفى بعيد عن روح الاسلام ، ومخالف للتجديد الخطير الذى أتى به .

وذهب أعرابى الى سوّار القاضى فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى ـ وخط خطين ناحية ـ ثم قال : وهجينا لنا (١) ـ وخط خطا آخر ناحية ـ ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثا ؛ فقال له الأعرابى : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى وأخى وهجينا لنا ؛ فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخى ؟ قال : أجل ؛ فغضب الأعرابى وقال : تعلّم والله إنك قليل الخالات بالدهناء ! !

وأنت ترى أن القاضى حكم عدلا على مذهب الاسلام ، ولكن الأعرابى لم يرضه ذلك .

وقال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ، ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم من الأجناس الأخرى :

أبلغ ربيعة فى مَرْوٍ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حربا ، يحرّق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأنَّ أهل الحجا عن رأيكم عُزُب
وتتركون عدوا قد أظلكمُ مما تأشب ، لا دين ولا حسب
قِدْماً يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمو فان دينهمو أن تقتل العرب

وما كان للأعاجم أن يغمضوا أعينهم عن هذه الصورة التى ظهر بها العرب إبان حكم بنى أمية ، بل نافخوا — وبخاصة الفرس منهم — عن جنسهم ، وفخروا بسالف مجدهم وسابق عزهم ، وتغنوا بحضارتهم التى شغلت سمع التاريخ وبصره أمدا غير قصير ؛

فهذا هو إسماعيل بن يسار الشاعر الشعوبى يفخر على العرب بملء شدقيه إذ يقول :

رُبَّ خال متوَّجٍ لى وعم ماجد مجتدًى كريم النِّصابِ

(١) الهجين : من كان أبوه عربيا وأمه أمة .

إنما سمى الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر يا أمامُ علينا ... واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى — إن جهلت — عنا وعنكم ... كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذ نربّى بناتنا وتدسّو ... ن سِفاهاً بناتكم فى التراب

ودخل يوما على هشام بن عبد الملك فى خلافته ، فأنشده قصيدة يقول فيها :

إنى وجدِّك ما عودى بذى خور ... عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب ... من كل قرْم بتاج الملك معموم
جحاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم
مَنْ مثل كسرى وسابور الجنودِ معا ... والهُرْمُزَان لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حلق الماذىّ سابغة ... مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناكِ إن تسألى تنبَىْ بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام وقال : أعلىَّ تفتخر ! وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! ! غطّوه فى الماء ؛ فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر باخراجه وهو يشر ، ونفاه من وقته الى الحجاز .

وما لبث هذا الصوت الخافت الضعيف الذى سمعناه وسمعته من إسماعيل بن يسار فى العصر الاموى ، أن انقلب الى صوت جهورى دوى فى أنحاء البلاد الاسلامية فى أواخر أيام الدولة الأموية ، ولولا أن الله حفظ الاسلام بالسمو الذى أودعه أصوله ، والحق الذى ضمنه تعاليمه ، لتخاذلت الأجناس التى كان يتألف منهم المسلمون ثم تناحرت ، ولكن هذه الفتنة لم تلبث أن تلاشت ، وعاش جميع المسلمين مدى تاريخهم كله على اختلاف أجناسهم متآخين متحابين حتى حقق الله بهم وعده ، وهم اليوم على أكمل ما يكونون ألفة ؟

أحمد ابراهيم موسى البارودى
تخصص البلاغة والأدب

نية القتل

فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

ما زال كثير من خاصة الناس يجهلون التشريع الاسلامى ونظره للحوادث وحكمه فيها ، وما زال فريق آخر ينظر الى أحكام هذا التشريع الجليل نظرة خاطئة فينكب عنه ولا يلتفت اليه كلما أعوزه البحث والتفكير لمعرفة وجه الحق فى قضية من القضايا .

وكان من الخير والعدل أن اتجهت الأنظار أخيرا الى هذا التشريع ، وطلب من رجاله الأجلاء أن يمثلوه فى المؤتمر الدولى الذى عقد بمدينة لاهاى فى العام المنصرم ، إذ ما كاد المؤتمرون يسمعون لرسالة الأزهر الشريف حتى أجمعوا على أن مبادىء الشريعة الاسلامية منبع فياض ، ومنهل عذب للقضاء والتشريع .

ولما كنت ممن تفقهوا فى الأزهر ، ودرسوا القوانين الحديثة فى غيره ، رأيت واجبا علىّ أن أتقدم الى قراء مجلة الأزهر الغراء بين آونة وأخرى بأبحاث فقهية أقارن فيها بين حكم الشريعة الاسلامية وحكم القوانين الوضعية فى مسائل معينة ، مشيرا الى ما قد يكون من اختلاف فى وجهة النظر ، والى ما يظهر لى رجحانه جهد استطاعتى ، آملا أن يكون التوفيق رائدى فى هذه الأبحاث ، وأن يجد فيها من يعنيهم ذلك ما تطمئن له النفس ، ويرتاح له الفكر ، ويستقيم معه المنطق .

وسأبحث اليوم فى أم الجرائم التى تقع من الانسان على أخيه الانسان ، وهى جريمة القتل ، وأبين مكان النية منها فى القوانين الجنائية الحديثة ، وفى الشريعة الاسلامية ، وما يترتب على معاصرتها لفعل القتل أو عدم معاصرتها له من اختلاف فى الحكم ، وكيف يستدل علماء الشريعة وعلماء القانون على وجود هذه النية وعدم وجودها :

قانون العقوبات المصرى — وهو على غرار القانون الفرنسى — ينص على أن : من قتل نفسا عمدا مع سبق الإصرار على ذلك أو الترصد ، يعاقب بالإعدام (م ١٩٤ ع) ، ومن قتل نفسا عمدا من غير سبق إصرار ولا ترصد ، يعاقب بالأشغال الشاقة ... (م ١٩٨ ع) ، ومن قتل نفسا خطأ بغير قصد ولا تعمد يعاقب بالحبس ... (م ٢٠٢ ع) .

وأحكام الشريعة الاسلامية تنظر الى القتل فى ذاته وتقسمه الى أنواع ثلاثة فتقول : القتل إما عمد ، بأن يعمد الى ضرب المجنى عليه بما يقتل غالبا ، وجزاؤه القصاص ؛ وإما شبه عمد ، بأن يعمد الى ضربه بما لا يقتل غالبا ، وجزاؤه دية مغلظة ، وزاد عليها أبو حنيفة

الكفارة ؛ وإما خطأ ، بأن لا يقصد الجناية أصلا أو يقصد زيدا فيصيب عمرا ، وجزاؤه دية مخففة ، وزاد عليها أبو حنيفة أيضا الكفارة .

ونظرة سريعة فى هذه النصوص تدل على أن القوانين الجنائية الحديثة تقسم هذه الجريمة الى فرعين أساسيين ، وهما : القتل عمدا ، وعقوبته الأشغال الشاقة ؛ والقتل خطأ ، وعقوبته الحبس ؛ وأن القتل العمد قد يقترن بما يسمونه ظرفا مشددا كسبق الإصرار على ارتكابه ، فتتغير العقوبة الى الإعدام ، بينما نرى أحكام الفقه الاسلامى تنوع هذه الجريمة الى ثلاثة أنواع كما تقدم .

والتوجيه العقلى لتنويع القتل الى أنواعه الثلاثة فى الفقه الاسلامى ، هو أن الجانى إما أن يقصد ضرب المجنى عليه بالذات أو لا يقصده ، ففى الحالة الأولى لا يخلو الأمر من أن يكون الجانى قد قصد ضربه بما يقتل غالبا فقتله ، وحينئذ فالجريمة هى القتل العمد ، أو يكون قد قصد ضربه بما لا يقتل غالبا ولكنه قتله أيضا ، وحينئذ فالجريمة هى القتل شبه العمد ؛ وفى الحالة الثانية ، وهى ما إذا لم يقصد الجانى ذات المجنى عليه بأن لم يقصد الجريمة أصلا أو قصد زيدا فأصاب عمرا ، تكون الجريمة هى القتل خطأ .

أما علماء القانون فانهم يعتمدون فى تقسيمهم على النية ، أى قصد ارتكاب الجريمة فقط ، فتى وجد كان القتل عمدا وإلا كان خطأ . والمراد عندهم قصد القتل لا قصد الضرب ، خلافا لما ورد فى النصوص الشرعية التى تتحقق العمدية فيها بقصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا .

ونظرة فاحصة فى التشريعين ترشد الى أن القتل فى كل منهما نوعان : عمد ، وخطأ . غاية الأمر أن الشريعة الاسلامية اعتبرت من يقصد هذه الجريمة ويستعمل لتنفيذها آلة قاتلة أشد خطرا من غيره ، فشددت عليه العقاب ؛ ويكون استعمال الآلة القاتلة ظرفا مشددا فى الشريعة الاسلامية يؤدى الى وجوب القود ، كظرف سبق الإصرار أو الترصد الذى اعتبره القانون ظرفا مشددا ، ورتب على تحققه عقوبة الإعدام .

لكن هناك أمرا تنبغى الاشارة اليه : ذلك أن العمدية تتحقق فى نظر الشريعة الاسلامية بوجود قصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا ؛ أما النصوص القانونية فتشترط قصد القتل .

وقد يفهم من ذلك أن فى أحكام الشريعة قسوة ليست فى أحكام القانون ، لكن هذا مردود بأن المشرعين العصريين فى أرقى الأمم حضارة ومدنية يذهبون الى ما يماثل نظر المشرع الاسلامى فى أحوال كثيرة . من ذلك أن قانون العقوبات الانجليزى يقضى بعقوبة القتل العمد على من قصد قتل آخر فضربه بعصا خفيفة ثم مات المجنى عليه ولم يكن موته نتيجة مباشرة

لهذا الضرب الخفيف بل كان بسبب مرض باطني مثلا حركه هذا الضرب . وهذه الحالة بالذات يعتبرها الشرع الاسلامي قتلا شبه عمد لا قصاص فيه .

وأكثر من هذا دلالة على رجوع متشرعي الأمم المتحضرة الى وجهة النظر الاسلامية ، أن علماء الانجليز وغيرهم يذهبون الى قيام القصد الاحتمالي مقام القصد الثابت في جريمة القتل ، ويحكمون بعقوبة القتل العمد فيما لو ضرب إنسان آخر بزجاجة في رأسه قاصدا الضرب فقط ، دون إحداث الموت ، ولكنه يقدر أن حدوث الموت ممكن ؛ ففي هذا المثل يرى أن الجاني لم يقصد القتل وإنما قصد الضرب ، ولم يبال بما عساه أن يحدث . وهو ضرب في مقتل من شأنه إحداث الموت أي بما يقتل غالبا ، يعني أن جميع العناصر اللازمة لاعتبار الحادثة قتلا عمدا في نظر المشرع الاسلامي ثابتة ، فهو قتل عمد في نظره ، وهو أيضا قتل عمد في نظر المشرع الحديث .

عرفنا مما سبق أن النية ركن للعمدية في الشرع الاسلامي والقوانين الوضعية ، وأن المقصود منها في الأول نية الضرب ، وفي الثانية نية القتل ، وأن أحدث التشاريع يكتفي بنية الاعتداء دون أن يكون القتل مقصودا ، لاعتبار الجريمة عمدية ؛ وضربنا لذلك بعض الأمثال ، فلم يبق إلا أن نعرف متى تعتبر النية حاصلة ، وكيف يستدل على وجودها أو عدمه .

هذه النية التي هي من مقومات القتل العمد يستدل عليها الشرعيون بالآلة التي تستعمل لارتكاب الجريمة ، فمتى كانت مما يقتل غالبا أي من شأنه إحداث الموت ، اعتبر القتل عمدا وإلا فلا . ويقولون في توجيه ذلك : إن النية هي القصد ، ولا سبيل للوقوف عليه إلا بدليله ؛ ودليله استعمال القاتل آلة قاتلة ، فأقيم الدليل وهو آلة القتل مقام المدلول وهو القصد ، وذلك لأن الدلائل تقوم مقام مدلولاتها في المعارف الظنية الشرعية . ومعنى هذا أنه يجب على القاضي تطبيق عقوبة الجريمة العمدية حتى لو أنكر الجاني التعمد ، أو لم يذكر شهودا لإثبات أنه كان متعمدا . وإذا كان علماء الشريعة يستدلون على وجود النية بالآلة التي استعملت وقت ارتكاب الجريمة ، فلا معنى للبحث عندهم في معاصرة النية أو عدم معاصرتها للفعل ، لأن المعاصرة من لوازم ذلك .

أما علماء القانون فانهم يستدلون على وجود نية القتل بكافة الطرق حتى القرائن البسيطة ، ويشترطون معاصرتها للفعل المادي وهو القتل ؛ ولكنهم يجيزون إثبات عكس هذه القرائن بكافة الطرق أيضا . وعلى هذا فالجاني الذي يمكنه إثبات أنه لم يقصد القتل مع أنه استعمل سلاحا فاتكاً ، لا يعتبر قاتلا عمدا ، ولا تطبق عليه عقوبة هذه الجريمة .

ولا شك أن هذه الطريقة في الاستدلال على النية قد تفتح بابا واسعا للاجتهاد الذي قد يخطئ صاحبه ، ولشهادة الشهود الذين قد لا يقررون الحق ، بينما تحول وجهة النظر الاسلامية دون ما عساه يحدث من ذلك ، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ؟

سيد سليم درويش



حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالى

نشر الأستاذ شكرى قرداحى العضو بالجمع العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه (إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الاسلام) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، متتبعا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الأجنبية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات العنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن منتظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فاتضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكتف سبحانه وتعالى بالأمر بالعدل معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والبر غاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدوَّن فى تاريخ أمة من الامم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشىء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هـذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشتبه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يمحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدها مر الأيام جـدة ؛ ولو أضفت إليها أمثالها فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لتألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالته الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الاسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأنَّى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتزازها بقومياتها وأديانها ، أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون فى أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولى أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى مُنِحوها بإملاء الدول الأجنبية أنفسها ، وقد اختارت لرعاياها أفضل ما تخيلته من ضروب الحمايات ، وصنوف الضمانات ؟ فأى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس بعجيب فحسب ، ولكنه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختاره لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكمل ما تخيلوه لصيانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردهم .

ومما يلفت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتنفيذ ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبة به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرهم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا عاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .

***

المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجيبا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجيبا فهى سيدة مغربية أمها جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تألمت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدنيتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجيبا لهذه العلة ؟

قالت : الدواء هو أن نحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

ستور وخلف أقفال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتى منها هى لا من الرجل . وطريق إيجاده هو أن تتعلم ما هو ضرورى لحياتها ، وأن تربى ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسعهن فيها ، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التى تعطاها أن تعرّف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول اليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج فى بلادها من الشذوذات الخانقة لحريتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .

***

نقول : إننا قد ألفنا هذه اللهجة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لا لأننا لا نهتم لإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجتها الى الإصلاح والتقويم ، ولكن لأنها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت ثمرتها وبالاً على المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الاوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن العبودية لا تنحصر فى أن تمنع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتيها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الادبية ليست فى المكانة التى يرجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب فى حقها من إيثارها الإسراف فى التبرج ، والإغراق فى التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، فى سقوطها فى هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فان المرأة اليوم أصبحت فى العالم المتمدن أشد عبودية مما كانت عليه فى أى زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجاتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانسانى وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومى ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العملى ، وبأجور لا تكاد تكفى ضرورياتها . وقد غصت بهن دور التجارة ، وأماكن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفجور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خلق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمزالّ الموبقة .

فالذى تشكو منه مدام مارى بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجو أن تؤول اليه حالها متى أكثرت لها من فتح المدارس ، ونفثت فيها بدروسها روح التمرد والثورة .

لو كانت تعلم مدام مارى بوجيبا ما خص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات فى الحياة الزوجية ، لأدركت أن أية امرأة فى العالم لا تحلم بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب فى حرمانها منها لاجهلها فحسب ، ولكن جهل رجلها أيضا ، بل

لتحققت أن جهل رجلها أشد تأثيرا فى حرمانها منها من جهلها هى بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتفهيمهم واجباتهم نحو نسائهم .

ومن العجب أن كثيرا من المسلمين الذين أخذوا إخذ المدنية الغربية ، يظنون ظن مدام مارى بوجيبا ، فيتخيلون أن الاسلام هو الذى قضى على المرأة الجاهلة بما هى فيه ؛ والواقع أن السبب فى نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فمادام الرجال يجهلون أن لنسائهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهن حقـوقا يجب أن توفى لهن ، فلا عجب أن عاملوا نساءهم معاملة البهائم مادمن لا يساوونهم فى القـوة الجسدية . والرجال الجهلاء لا يحسنون معاشرة أصحابهم بالمعروف ، ولا حفظ كراماتهم الشخصية ، فتراهم إذا جلسوا يتصاخبـون ويصطرخون ، ثم يتسابون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما بهم فيتضاربون ويصطرعون . هـذه حالتهم العادية تشاهد لمن يتعمد رؤيتها فى بيئاتهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدميـة أن يحسنوا معاشرة زوجاتهم ، وأن يلطفوا من سلطانهم عليهن الى الحد الذى نرضى به منهم ؟

الشرع الإسلامى يحض الرجال على معاشرة زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجاتهن ، حتى لم يكلفهن بخدمتهم ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهن خـدما ؛ وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ؛ وعرّف الزواج بأنه سكـن لـكلا الجنسين يجدان فيه العطف والمحبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والإسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بدون تدخل من زوجها فى شئونها ، وأن تفتى فى الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرّس العـلوم العالية إذا تأهلت لذلك كله . ومنحها فوق ذلك حق التصرف فى عصمتها ، فتستبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا يعارضها فيه معارض .

فهذا كله إعلان من الإسلام برشدها وصلاحيتها لـكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام مارى بوجيبا الإسلام قبل أن تطعن فيه وتسوئ سمعته فى بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجيبا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الإسلام قضى عليها بذلك ؛ وهذا خطأ عظيم ، فإن الإسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولـكنه أمر بحفظ عرضها سليما من الدنس ، وسمعتها نقية من سوء القالة . فإذا غلا بعض الجهال فى ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الاسلام ، ولـكن على جهل العامة ، فاذا أحسنا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الـكسف الخلقية أكثر حقوقا من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

قدمنا لحضرات القراء أن حكم الوقف عند أبى حنيفة جائز غير لازم ، فهو عنده بمنزلة العارية ، على معنى أن للواقف أن يرجع عنه ، وأن يتصرف فى العين الموقوفة بالبيع والرهن والهبة والوصية وسائر التصرفات الناقلة للملكية ، فاذا مات الواقف ورث عنه كما يجوز للمعير أن يرجع فى عاريته ويتصرف فيها تصرف المالك فيما ملك ، حتى تقسم بين ورثته لو مات . فيجوز للواقف أن يتصرف فى العين الموقوفة بعد وقفها بسائر أنواع التصرفات الناقلة للملكية . فلو مات قسمت هذه العين بين ورثته كما لو كانت غير موقوفة . هذا معنى عدم لزوم الوقف عند الإمام أبى حنيفة .

فحكم الوقف عند أبى حنيفة جوازه مع عدم لزومه لما بينّا . وحكمه عند الصاحبين أبى يوسف ومحمد لزومه لمجرد تمام ضبطه وصيغته ، فليس للواقف أن يرجع عنه قيد حياته ، ولا أن يتصرف فيه تصرفا من التصرفات الناقلة للملكية إطلاقا ، وإذا مات لا يورث عنه . قال العلامة ابن عابدين فى إحدى رسائله : « لأنه خرج بعد ضبطه ، وتمامه من ملك الواقف الى ذمة الله ، فلا يجرى عليه تصرف من التصرفات اللاحقة للملكية ، وهذا علة لزومه عند الصاحبين »

وبه أفتى جمهرة ساحقة من السلف والخلف ، وكاد ينعقد عليه الإجماع بين جمهرة من المتأخرين وفريق من الفقهاء المشترعين ، وعليه عمل القضاء والفتيا منذ قام نظام القضاء الشرعى فى الأمم الاسلامية ، ومصر منها فى الطليعة ، ولم يتصل بعلم أحد من المشتغلين بنظريات الوقف أن محكمة من محاكم الموضوع نقضت إشهادا بوقف توفرت شرائطه وأركانه ، وسلمت أسبابه وبواعثه . فمذهب الصاحبين كما أسلفنا هو المفتى به ، وهو المعول عليه .

استدل الامام أبو حنيفة على عدم لزوم الوقف بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله تعالى » . ومعناه أنه لا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته ، تطبيقا لآية المواريث فى القرآن ، فهو ظاهر فى عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف المقتضى لعدم لزوم الوقف ، وإلا كان اللزوم مصطدما بآية المواريث ، وخارجا عن مدلول هذا الحديث .

هذا أولا ، وثانيا : أن شريحا القاضى رضى الله عنه صرح فيما صرح بتلك المقالة المشهورة ، وهى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس » بضمتين ، وهى جمع حبس بضم فسكون

وهو المال الموقوف . وصريح تلك الرواية عن شريح أن الأموال المحبوسة كان بيعها محظورا في عصور الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم أجاز بيعها والتصرف فيها ، فكان لكل مالك عين حبسها على بعض عبدة الأوثان أو على جهة من جهات المنفعة أن يتحلل من ذلك القيد في الاسلام ، وأن يستمتع بنعمة الحرية التي هي ملك عام للناس جميعا ، فيجوز له أن يتصرف في العين المحبوسة على سبيل الوقف ، كما لو كانت ملكا خالصا للواقف انتهاء ، والوقف على كل حال يشبه العارية ، والعارية جائزة الرجوع فيها ، والواقف حين رصد عينا على جهة إنما رصدها لله وفي سبيل الله ، فليس لأحد أن يسلبه حق الاختيار في بقائها موقوفة أو رجوعها الى ملكه لأنه تصرف لا يعدو تبرعا . وأيضا فإن حقوق العباد لم تنقطع حال قيام صفة الوقف عن العين الموقوفة ، حيث لهم أن ينتفعوا بالموقوف زراعة وسكنى مثلا ، فبقاء هذه الحقوق متصلة بالموقوف دليل بقاء الملكية للواقف ، ولا ملك لغيره ما دام صاحب العين الموقوفة منه ابتداء . وهذا قدر متفق عليه بين الامام وصاحبيه ، فلزم عن ذلك أن يكون الملك للواقف لا لغيره .

ومما يؤيد اتجاه الامام رضي الله عنه أن للواقف نصب النظار على وقفه يختارهم بأسمائهم أو بشرائطهم المعينة لخصائصهم التي استحقوا بها الأرجحية عنده عمن سواهم ، كما له عزلهم ، وله صرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وأحكام المحاكم الشرعية قائمة على احترام تلك الشروط التي شرطها الواقف لنفسه في كتاب وقفه ، وهذا دليل بقاء أثر الملكية للواقف في العين الموقوفة ؟ « يتبع »

عباس طه

المقالات والتقاريظ المتأخرة

منعنا تزاحم المواد من نشر بحوث ومقالات ممتعة ، منها زيادة بيان في بحث الزكاة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ؛ ومنها الحلقة الثانية من بحوث فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الجواد رمضان في الأدب ، ودراسات قيمة أخرى في التراجم والاقتصاد والنقد ، وتقاريظ لمؤلفات ثمينة وصلت إلينا ، فنعتذر عن ذلك ، ونعد بنشرها في الأعداد المقبلة إن شاء الله .

معرض الآراء العالمية في الإسلام والمسلمين

حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالى

نشر الأستاذ شكرى قرداحى العضو بالمجمع العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه (إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الاسلام) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، متتبعا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الأجنبية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات العنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن منتظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فاتضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكتف سبحانه وتعالى بالأمر بالعدل معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والبر غاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدوّن فى تاريخ أمة من الأمم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشىء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشتبه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يمحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدها مر الأيام جدة ؛ ولو أضفت إليها أمثالها فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لتألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالته الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الاسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأنّى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتزازها بقومياتها وأديانها ، أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدةٍ للحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون فى أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولى أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى مُنِحوها بإملاء الدول الأجنبية أنفسها ، وقد اختارت لرعاياها أفضل ما تخيلته من ضروب الحمايات ، وصنوف الضمانات ؟ فأى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس بعجيب فحسب ، ولكنه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختاره لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكمل ما تخيلوه لصيانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردهم .

ومما يلفت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتنفيذ ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبةً به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرهم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا عاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .

***

المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجيبا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجيبا فهى سيدة مغربية أمها جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تألمت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدنيتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجيبا لهذه العلة ؟

قالت : الدواء هو أن نحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

ستور وخلف أقفال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتى منها هى لا من الرجل . وطريق إيجاده هو أن تتعلم ما هو ضرورى لحياتها ، وأن تربى ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسعهن فيها ، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التى تعطاها أن تعرّف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول اليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج فى بلادها من الشذوذات الخانقة لحريتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .

***

نقول : إننا قد ألفنا هذه اللهجة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لا لأننا لا نهتم لإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجتها الى الإصلاح والتقويم ، ولكن لأنها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت ثمرتها وبالاً على المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الأوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن العبودية لا تنحصر فى أن تمنع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتيها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الأدبية ليست فى المكانة التى يرجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب فى حقها من إيثارها الإسراف فى التبرج ، والإغراق فى التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، فى سقوطها فى هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فان المرأة اليوم أصبحت فى العالم المتمدن أشد عبودية مما كانت عليه فى أى زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجاتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانسانى وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومى ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العملى ، وبأجور لا تكاد تكفى ضرورياتها . وقد غصت بهن دور التجارة ، وأماكن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفجور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خلق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمزالّ الموبقة .

فالذى تشكو منه مدام مارى بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجو أن تؤول اليه حالها متى أكثرت لها من فتح المدارس ، ونفثت فيها بدروسها روح التمرد والثورة .

لو كانت تعلم مدام مارى بوجيبا ماخص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات فى الحياة الزوجية ، لأدركت أن أية امرأة فى العالم لا تحلم بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب فى حرمانها منها لاجهلها فحسب ، ولكن جهل رجلها أيضا ، بل

لتحققت أن جهل رجلها أشد تأثيرا فى حرمانها منها من جهلها هى بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتفهيمهم واجباتهم نحو نسائهم .

ومن العجب أن كثيرا من المسلمين الذين أخذوا إخذ المدنية الغربية ، يظنون ظن مدام مارى بوجيبا ، فيتخيلون أن الاسلام هو الذى قضى على المرأة الجاهلة بما هى فيه ؛ والواقع أن السبب فى نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فمادام الرجال يجهلون أن لنسائهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهن حقوقا يجب أن توفى لهن ، فلا عجب أن عاملوا نساءهم معاملة البهائم مادمن لا يساوونهم فى القوة الجسدية . والرجال الجهلاء لا يحسنون معاشرة أصحابهم بالمعروف ، ولا حفظ كراماتهم الشخصية ، فتراهم إذا جلسوا يتصاخبون ويصطرخون ، ثم يتسابون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما بهم فيتضاربون ويصطرعون . هذه حالتهم العادية تشاهد لمن يتعمد رؤيتها فى بيئاتهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدمية أن يحسنوا معاشرة زوجاتهم ، وأن يلطفوا من سلطانهم عليهن الى الحد الذى نرضى به منهم ؟

الشرع الإسلامى يحض الرجال على معاشرة زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجاتهن ، حتى لم يكلفهن بخدمتهم ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهن خدما ؛ وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ؛ وعرّف الزواج بأنه سَكَن لكلا الجنسين يجدان فيه العطف والمحبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والإسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بدون تدخل من زوجها فى شئونها ، وأن تفتى فى الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرّس العلوم العالية إذا تأهلت لذلك كله . ومنحها فوق ذلك حق التصرف فى عصمتها ، فتستبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا يعارضها فيه معارض .

فهذا كله إعلان من الإسلام برشدها وصلاحيتها لكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام مارى بوجيبا الإسلام قبل أن تطعن فيه وتسوئ سمعته فى بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجيبا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الإسلام قضى عليها بذلك ؛ وهذا خطأ عظيم ، فإن الإسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولكنه أمر بحفظ عرضها سليما من الدنس ، وسمعتها نقية من سوء القالة . فإذا غلا بعض الجهال فى ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الاسلام ، ولكن على جهل العامة ، فاذا أحسنا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الكسف الخلقية أكثر حقوقا من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .

محمد فريد وجدى

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر
الدرس الثالث الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد البيومى بالقاهرة
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليم خبير) :

الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات التى عليها العرب ، أعنى أنها أعم الطبقات ، فهو أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العمارة ، والعمارة أعم من البطن ، والبطن أعم من الفخذ ، والفخذ أعم من الفصيلة . فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت شعوبا لأن القبائل وما بعدها تتشعب منها وتتفرع عليها . وقيل : إن الشعوب فى العجم ، والقبائل فى العرب ، والأسباط فى اليهود .

ومعنى الآية : أن الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم ، فهم متساوون فى أصل الخلقة ، وفى المادة التى منها الخلقة ، كما أنهم متساوون فى الصدور عن الإله جل شأنه ؛ وأن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليعرف بعضهم بعضا ، فى قرب القرابة وبعدها ، وليصلوا الأرحام ، ولا يعتزى أحد الى غير آبائه . والنسب غير مكتسب للإنسان ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مدارا للفخر . والتقوى هى المكتسبة ، وهى التى عليها تجرى المقاييس عند الله تعالى ؛ فاذا جاز الفخر بشىء ، فان أحق شىء بالفخر هو التقوى فافخروا بها ، فان أكرمكم عند الله أتقاكم . فقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » تعليل للنهى عن الفخر بالأنساب ، وبيان للطريق الصحيح فى الفخر . والله خبير بأحوال الناس ، عليم بأعمالهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ويقدم أحسنهم عملا ، لا أشرفهم نسبا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب ، بل بالعمل . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس رجلان : بَر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هيّن على الله ؛ الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » ؛ ثم قرأ هذه الآية . وخطب صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال : « ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : فليبلغ الشاهد الغائب » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « لَيَنْتَهِيَنّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونُنّ أهون على الله من الجِعلان (١) » .

الاسلام دين عام خالد ، قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة ، واعتبرهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الاسلام ، تقاتل مخالفيه ، وتنشر تعاليمه ، وتثبت قواعد التوحيد ، إذا استمرت القبائل تفخر على القبائل ، والشعوب تفخر على الشعوب . وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجناس تشعر بالتفاوت والتغاير . ولا بد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها ، وتنتظمها وحدة تكون هى الغايةَ التى يحافَظ عليها ، ويقاتَل من أجلها . وهذه الوحدة التى اعتبرت ، رباطها الإيمان ؛ فهو الجامع لجميع الأجناس ، والموحد لجميع القبائل والشعوب ؛ وهو الذى يدافَع عنه ، ويقاتَل من أجله .

بهذه الآية وجد الرباط القوى بين الأمم والأجناس ، وقضى على النزعة الهادمة التى كانت تسود العرب ، حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ، ويفخرون بنسبهم على العجم ؛ وكان هذا التفاخر يوجد بينهم أحيانا عداوات وترات . وبهذه القاعدة مهّد الاسلام للعامل المجدّ ، أن يفتح أمامه طريق المجد ، وأن ينال فى الدنيا ما يصل اليه جهده ، وفى الآخرة ما تعده له تقواه . والتقوى تنال بالأعمال الصالحة ، وليست الأعمال الصالحة صلاة وصوما وحجا فحسب ، بل هى هذه وحياطة الاسلام ، والجهاد فى سبيله وفى سبيل الحق . وفى آخر هذه السورة : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » ، فمن الممكن أن يكون أى شخص هو الأكرم عند الله . وإذ قد عرف المسلمون أن الكرامة عند الله بالتقوى ، فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو المعيارَ عندهم ، وأن يكون المتقون هم الأكرمين .

هذا هو السمو بالنفس الانسانية الى أعلى الدرجات ؛ وهذا ماجاء به الاسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ وكان الناس إذ ذاك فى ظلمة العبودية وتقديس الطغيان . وبعد أن عرفت

(١) الجعلان بكسر الجيم : جمع جعل بضم الجيم وفتح العين : دابة سوداء كالخنفساء . وقيل هو أبو جعران .

الأمم هذا نخرت به ، وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف ، والاسلام عاثر الجد بينهم بما هو براء منه ، وبما جاء لهدمه .

جاء الاسلام بهدم مزايا الأجناس ، وبالتعويل على التقوى والعمل الصالح . وأين هذا مما عليه المسلمون الآن ، من اعتزاز كل أمة بجنسها ، وكل واحد بقبيلته أو أسرته ، مما أدى الى تقطيع الروابط ، والى ألا يكون المسلمون تحت وحدة يدافعون عنها ، فأصبحوا أذلة بعد العزة ، وضعفاء بعد القوة ، فهم على كثرتهم كأنهم غثاء السيل ، لا يقام لهم وزن :

ويُقضَى الأمرُ حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

هذه الآداب التي ساقها الله فى الآيات السابقة ، والتى طلب أن يكون عليها المؤمنون ، قائمة على أصول هى اعتبار المسلمين وحدة ، واعتبار أفرادهم إخوة ؛ وقائمة أيضا على أصل خطير فى الحياة ، وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم ، والأخذ بيد الحق ، والوقوف فى صف المظلومين . هذه درجة سامية كرمهم الله تعالى بها ؛ ومن الواجب أن يفقهوها ، ويتدبروها ، ويعملوا عليها ، ليكونوا أشرف الناس ، وأعزهم جانبا ، وأكرمهم مبدأ . ونسأل الله الهداية والتوفيق ! !

***

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذ منه الإيمان وجعل اسما للتصديق الذى معه الأمن ، وهو الإذعان للحق ؛ ومنه قول الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا (١) » أى بمصدق . والاسلام : استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد . والتسليم عام ، يكون فى القلب واللسان والجوارح . فالاسلام أعم ، والإيمان أخص ، وهو أشرف أجزاء الاسلام .

هذا ما تعطيه اللغة ، لكن الإيمان والاسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى ، فقد استعملا مترادفين ، ومختلفين ، ومتداخلين .

ومن الترادف قول الله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٢) » ، ولم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد . وفى الحديث الشريف « بنى الإسلام على خمس » . وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بمثل هذا .

(١) يوسف : ١٧ (٢) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦

ومن الاختلاف قول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، أراد بالإيمان التصديق وطمأنينة النفس ، وبالاسلام الانقياد والاستسلام فى الظاهر . وفى حديث جبريل لما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب ، وبالقدر خيره وشره » ؛ ولما سأله عن الاسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » .

ومن التداخل : سئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإسلام ؛ فقيل : أى الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . وهو دليل على أن الاسلام أعم والإيمان أخص . وهذا يوافق الاستعمال اللغوى ، لأن الإيمان عمل من الأعمال هو أفضل جزء فى الاسلام ، لأن الاسلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح . وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب ، وهو الإيمان .

وعند الترادف يكون هناك تعميم فى الإيمان ، بإطلاقه على التصديق ، وعلى ثمرة التصديق ، وهى النطق باللسان ، والإتيان بالأعمال . وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص فى الاسلام ، حيث خص بالتسليم الظاهرى ، وهو الإقرار باللسان ، والطاعة بالأعمال .

وقد جاء استعمال الإيمان فى العمل الصالح : « وما كان اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكم (١) . وفى الحديث الشريف : جعل إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء من الإيمان .

ولا خلاف فى أن النطق بالشهادتين كاف فى إجراء أحكام الإيمان فى الدنيا ، ويعتبر المقر بلسانه مؤمنا ، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه قلبه ؛ كما أنه لا خلاف فى أنه إذا لم يكن مصدقا بقلبه فهو كافر مخلد فى النار . لكن هناك خلاف فيما يجب أن يضم الى التصديق القلبى للنجاة فى الآخرة ، وعدم الخلود فى النار :

فمن جمع بين التصديق والإقرار ، والإتيان بالأعمال الصالحة ، فلا خلاف فى أن الجنة مستقره ؛ ومن صدق وأقر وارتكب شيئا من الكبائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة ، لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ ويخلد فى النار عند المعتزلة ، لأن مرتكب المعصية يخرج فى رأيهم عن الإيمان ، والجنة لايدخلها إلا مؤمن . وهو عند الجمهور رجل عاص يدخل النار فيطهر فيها ثم يخرج منها ، لأنه لا يخلد فى النار إلا الكافرون .

ويمكن بعد هذا أن نقول : إن الإيمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو التصديق وحده عند الجمهور وعند المرجئة . أما الايمان عند المعتزلة فهو مركب من ثلاثة أشياء : التصديق ،

(١) البقرة : ١٤٣

والإقرار ، والعمل الصالح . ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروى عن السلف ، رضى الله عنهم ؛ فقد نقل اتفاقهم على أن الإيمان تصديق ، وقول ، وعمل . لكن الجمهور يقولون : إن المروى عن السلف هو تفسير للإيمان الكامل الذى يجعل مستقر صاحبه الجنة ، وينجيه من دخول النار ، وذلك للقطع بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتبرون العصاة غير مؤمنين . ولا شبهة فى أن المتتبع لآيات الله سبحانه ، وللسنة المحمدية ، وأقوال الأئمة ، يقطع بأن الاسلام يعتبر العصاة مؤمنين ، يعذبون ويطهرون ثم يخرجون الى دار النعيم .

لاته عن كذا يليته : صرفه عنه ونقصه حقًا له . والمصدر ليت .

ولا يلتكم من أعمالكم : أى لا ينقصكم من أعمالكم . ولات وألات بمعنى نقص .

هؤلاء الأعراب إما أن يكونوا مصدقين مقرين ، وإما أن يكونوا مقرين غير مصدقين . فان كانوا مصدقين مقرين ، كان المعنى : لا يصح لكم أن تقولوا آمنا على الإطلاق ، لأن معنى آمنا ، على الإطلاق : حققنا القول بالعمل ، ويصح لكم أن تقولوا قولا لا إشكال فيه على سامعيه ، وإن قلتموه كنتم محقين فى قوله ، وهو أن تقولوا : أسلمنا ، أى دخلنا فى الملة بالشهادة التى تحقن الدم وتصون الأموال . وعلى هذا يكون معنى قوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » : لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائقه ومعانيه فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله ، وتعملوا بما فرضه الله عليكم ، وتنتهوا عما نهاكم عنه ، لا يظلمكم شيئا من أجور أعمالكم ، ولا ينقصكم من ثوابها شيئا . وهو غفور لمن تاب ، ورحيم لا يعاقب بعد التوبة . ويمكن أن تكون الطاعة هنا بمعنى التوبة عن النفاق ، وعقد القلب على الإيمان ، ليوافق القلب اللسان ، فإذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم ، وغفر لكم .

وإن كانوا مقرين غير مصدقين ، كان المعنى : لم تؤمنوا إيمانا وافق القلب فيه اللسان ، لانكم لم تصدقوا ، وقولوا : أسلمنا ، أى انقدنا ودخلنا فى زمرة أهل السلم ، ولما يدخل الايمان الحقيقى وهو التصديق فى قلوبكم . ولا تكرار بين قوله : « لم تؤمنوا » وقوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » لأن الجملة الثانية فى موضع الحال من الضمير فى « قولوا » ؛ وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه ؛ فالمعنى : قولوا أسلمنا فى الوقت الذى لم يدخل الإيمان فيه قلوبكم .

***

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

رابه : أوقعه فى الشك والتهمة ؛ وارتاب : مطاوعه ؛ وريب المنون : ليس الشك فيه من جهة حصوله ، بل من جهة وقته .

والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . والجهاد : يشمل جهاد العدو الظاهر ، وجهاد النفس . وفى الحديث : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » . والجهاد الظاهرى يكون باليد ويكون باللسان . وفى الحديث : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » .

يقول الله سبحانه : ليس الإيمان هو ما زعمتم من قول لايوافقه عقد القلب ، أو من تصديق وقول لم تؤازرها الأعمال ، ولم تشدها الطاعة ، بل الايمان الذى يعتمده الله سبحانه ، ويستحق أهله الحمد والثناء ، ويباعد بين أهله وبين النار ، هو تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح ، بالطاعة ، وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والتضحية بالنفس والمال ، فى سبيل الله الذى ارتضاه لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البغى ، وعمارة الأرض ، وتطهيرها من الفساد . أولئك الذين هذه خصالهم ، وهذا إيمانهم ، هم الصادقون إذا قالوا آمنا على الإطلاق ، وهم الذين إيمانهم إيمان صدق ، وحق ، وجد ، وثبات .

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر ، لأنه أشق أنواع الطاعة .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » إما أن يكون معناه : آمنوا واستمروا على التصديق والإذعان للحق ، ولم يعترضهم الريب بعد ذلك ، لأن المؤمن قد يبتلى بمن يضلله ويقذف فى قلبه ما يثلم اليقين ، أو ينظر نظرا خاطئا يسقط به على الشك فيركب رأسه ، لا يطلب المخرج ؛ فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذا . وإما أن يكون معناه : آمنوا ولم يداخل إيمانهم ريب ؛ وأفرد بالذكر مع أن الايمان يقتضيه ، للدلالة على مكانة نفى الريب والشك من الإيمان . وجاء « ثم » للدلالة على استقرار الإيمان فى الأزمنة المترامية المتطاولة ، غضا طريا .

الجهاد بالنفس يشمل القتال ، والمرابطة فى الثغور على حدود بلاد الاسلام ، ويشمل الحراسة ، وكل عمل من الأعمال التى يحتاج اليها القتال . والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر ، من الزكاة ، والصدقة ، وبناء المساجد ، والمصحات ، وإنشاء المرافق العامة للمسلمين . ومن أهم أنواع الجهاد بالمال ، تجهيز الغزاة بالمعدات ، والإنفاق عليهم فى طعامهم وشرابهم ولباسهم .

ذكر الجهاد فى هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة ؛ وفرض على المسلمين فى آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع الى الحق . والجهاد فى سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ؛ وإعلاء كلمة الله . إعزاز...

إعلاء للحق ؛ فكأن المسلم ندب من الله لنصر الحق وإعزازه ، والضرب على أيدى البغاة ؛ وندب لتطهير الأرض من الفساد .

هذه منزلة وضع بها فى الدرجة العليا من منازل الكرامة ؛ فعليه أن يعد نفسه لها ، وأن يعتبر نفسه جنديا ، إما فى القتال والغزو ، وإما فى الرباط ، وإما على أهبة أن يدعى لواحد منها . وقد جعل الله أجر الجهاد عظيما ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه . ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد فى بقاء فرضيته الى الأبد ، وفى أنه فرض عين أو كفاية ، فهذه مسائل تكفلت بها كتب الفقه . ولكن مما لا نزاع فيه عند أحد أنه إذا قوتل المسلمون واعتدى عليهم ، قتالا للدين أو للوطن ، وجب على المسلمين الجهاد ، وقتال المعتدين ، وأنهم يأثمون جميعا إذا لم يتعاونوا جميعا على قتال الأعداء . والجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الذى لا يقصد منه مغنم دنيوى . فعن أبى موسى أن أعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو فى سبيل الله » .

ويمكن أن تعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الاسلام فى القتال : « لا يَنهاكُم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارِكم أنْ تَبَرُّوهم وتُقسِطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكُمُ اللهُ عن الذين قَاتَلوكُمْ فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظَاهَرُوا على إخراجكم أن تَوَلَّوهم ، ومَنْ يتولَّهم فأولئك هم الظالمون (١) » .

أمر الله ورسوله بالجهاد ، وبين فضله ، ورغب فيه . وفى الكتاب العزيز : « فلْيقاتلْ فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة ، ومَن يقاتلْ فى سبيل الله فيُقتلْ أو يَغلِبْ فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٢) » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم ، فَضّل اللهُ المجاهِدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ، وكلاً وَعدَ اللهُ الحسْنى ، وفضّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان الله غفورا رحيما (٣) » ، « أجعلتم سِقَايةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وجاهدَ فى سبيل اللهِ ، لايستوون عند اللهِ ، واللهُ لا يهدِى القومَ الظالمين . الذين آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عندَ اللهِ ، وأولئك همُ الفائزون . يبشّرهم ربُّهم برحمة منه ورِضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدين فيها أبدا ، إنّ اللهَ عنده أجرٌ عظيمٌ (٤) » .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « ضَمِنَ اللهُ لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ فى سبيله وإيمانٌ به ، وتصديقٌ برسله ، أن يُدخله الجنةَ ، أو يَرجعه الى منزله الذى خرج منه

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ (٢) النساء : ٧٤ (٣) النساء : ٩٥ (٤) التوبة : ١٩ — ٢٢

نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » . وعنه أيضا : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله . ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله ألا يرجع الى أهله ؛ ومن رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » . والرباط : هو الذى يكون آخر بلاد الاسلام على حدود بلاد الأعداء .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من أعان مجاهدا فى سبيل الله أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما فيها » .

أمر الله بالجهاد ، وأمر بأن يعد للأعداء العدة ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ، فقال : « وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ (١) » . والقوة تختلف باختلاف العصور ، وتجد فى كل عصر عدة وأسلحة للقتال ، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم فى العدة ، وعليهم أن يتقنوها ، وعليهم أن يصنعوها ، وعليهم أن يحرزوا موادها ، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد ، وأسرار الصنعة ، كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها ، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره ، واللغة العربية وعلومها .

لكن المسلمين قد حرموا بعض هذه المعارف ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان ! !

يجب على المسلم أن يعد نفسه جسمانيا ليكون دائما على أهبة القتال ، فيتعلم ضروب الرماية ، والسباحة ، ويمرن عقله ، ويمرن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار . كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه : « وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفى الحديث الشريف : « كل شىء ليس من ذكر الله فهو لهوٌ ، إلا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين (أى بين الهدفين اللذين يوضعان للرمى) ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة » . وعنه أيضا : « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها » .

وحرم الله فى القتال الفرار من الزحف : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبارَ ، ومن يولّهم يومئذ دُبُرَه إلا مُتحرِّفاً لقتال ، أو مُتحيِّزاً الى فئةٍ ، فقد باءَ بغضبٍ من الله ، ومأواه جهنّمُ ، وبئس المصيرُ (٢) » .

وحث الله تعالى على الإسراع فى إجابة الدعوة الى القتال فى سبيل الله ، وحرم التثاقل ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ما لكُمْ إذا قيل لكُمُ انفِروا فى سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض ؟ ! أرَضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ! فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ .

(١) الانفال : ٦٠ (٢) الانفال : ١٦

إِلَّا تَنْفِرُوا يعذبكم عذاباً أليما ، ويستبدلْ قوماً غيرَكم ، ولا تَضُرُّوه شيئاً ، والله على كل شيء قديرٌ (١) » .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف » . وفى حديث آخر : « خمس ليس لهن كفارة — وعدّ منهن : الفرار من الزحف » .

هذه هى أحكام الجهاد ، وفضله . ولم يشرعه الاسلام للتوسع والغنم ، بل شرعه دفاعا عن الحق ، وذودا عن حياض الدين .

أعد الله المسلم ليكون فى القتال رجلا إذا دعا الداعى وحانت ساعة الإقدام ، وليكون ملكا مهذب الأخلاق ، سمح الطباع ، لا يسخر من أحد ولا يلمزه ، مؤدبا مع الله سبحانه : لا يقدم رأيا على رأيه ، ومع الرسول الكريم : يخاطبه باللين والرفق ، ويجاهد نفسه وهواه . هذا هو المسلم الذى يريده الاسلام .

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم ، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين ، وأن يهبّوا لدفع الأخطار المحيقة ببلادهم ، والأخطار التى ربما قوضت مبادئ الدين ؟ !

أعتقد أن ناقوس الخطر دق ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح ، وأن الفرصة سانحة الآن لخير الاسلام والمسلمين .

* * *

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

يعنى : أتعلمونه عقيدتكم وتقولون آمنا ؟ ومعناه : أطعنا وتحققنا بالشرائع ، أو صدقنا ووافق قولنا ما فى قلبنا وأنتم على غير ذلك ، وهو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية .

* * *

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) :

(١) التوبة : ٣٨ ، ٣٩

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله هو الذى يمن عليكم أن وفقكم للإيمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فان كنتم صادقين فى قولكم آمنا ، فالله وحده هو الذى هداكم لهذا الإيمان الذى تزعمونه وتدعون أنكم أرشدتم اليه .

يقال : منّ عليه بيد أسداها اليه . والمنة : النعمة التى لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ، لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المثوبة . ومنّ عليه صنعه : إذا اعتده عليه .

قال صاحب الكشاف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة : ذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون إيمانا كما زعموا ، فلما منّوا ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدّون عليك ما ليس جديرا بالاعتداد به ، من حديثهم الذى حقه أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدّوا علىّ إسلامكم ، أى حديثكم المسمى عندى إسلاما لا إيمانا ، بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حسب زعمكم للإيمان ؛ فان صح زعمكم ، وصدقت دعواكم فالله صاحب المنة ؛ لكنه زعم يعلم الله خلافه .

***

(إنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

وإذا كان يعلم الغيب فى السموات والأرض ، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب ، والداخل فى الاسلام رغبة فيه ، والداخل خوفا من جند الله وحقنا لدمه ، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه ، فهو يعلم ما تكنه الضمائر ، وما تحدث به النفس ، وما غاب عنكم فاستتر فى خبايا السموات والأرض ؛ وهو بصير بأعمالكم التى تعملونها سرا وجهراً ، وطاعة ومعصية ؛ وهو مجاز على هذا كله ، يجزى على الشر بالشر ، وعلى الخير بالخير .

وأسأل الله العلى القدير ، أن يوفق المسلمين لمعرفة دينهم ، والعمل على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، إنه سميع مجيب ؟

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

نشوء الدولة الاسلامية

بين العوامل المختلفة

لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الاسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب فى عشية وضحاها لم تشهده مدينة قبلها فى الأرض ؛ وأى مدينة جاهلية فى أية بيئة من بيئات المعمور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله فى عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، ويحل محله دين جديد ، ليس الداعى إليه بملك عظيم يرجى أن تعمهم عطاياه ، وتحميهم من أعدائهم جيوشه وسراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبتْ به دياره ، وعاداه قومه ، ولحق به من شيعته رجال لا يملكون شروى نقير ، حاملا إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأى شىء تفرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وجَزَر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم الى قريش لتستنصروا بها ، أفتعودون وقد استجلبتم سخطها ، واستهدفتم حربها ؟ وكنتم تستنجدون البعيدين عنكم ، على عدو كان يساويكم عددا وعدة ، أفتنقلبون وقد أثرتم عليكم العرب كلهم ؟ فماذا ترجون من وراء هذه المغامرة التى لم تندفع فى تيارها جماعة قبلكم إلا باءت بالويل الوائل ، والهول الهائل ؛ قلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق فى الأرض ، وإما الشهادة فى سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تعليله لو حدث لرجل واحد ، فما ظنك وقد حدث لقبيلتين متحاقدتين ؟ فى هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبي صلى الله عليه وسلم حكومته (النبوية) ، وهى طراز من الحكومات لا تقوم إلا فى عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحى الإلهى والشورى ؛ الوحى فى الأمور الكلية التى تتأصل فيها الأصول ، وتتدعم المبادئ الأولية للدين والدولة المستقبلين ، والشورى فى الأمور الجزئية التى تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة

على نظام الحكومات الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألتكم . فكانوا يتباحثون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فيعدل عن رأيه الى رأيهم .

على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الحوادث التى يقتضيها قيام جماعة من أول تكوّنها الى أن تصل الى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطرأ مشاكل ، تارة تصادف حلولا ، وطورا تؤدى الى مآزق تصطهر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الحناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج اليه كل نفس بشرية فى تكملها ، وكل هيئة اجتماعية فى تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » .

فالباحث الاجتماعى يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواةٍ أكبر أمة عالمية نالت من زعامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية الفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها الى اليوم . وهذا ماسنقوم به فى هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلمى ، وفاء بما شرطناه فى مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبى صلى الله عليه وسلم من يثرب فى جماعة قبلت الاسلام دينا ، وسلمت له مقادتها يقودها الى حيث يشير به عليه الوحى من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقّب على حكمه معقّب ، وهى قيادة لم ينلها قبله فى قبيلة أجنبى عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذى يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشا غطفانى ، ولا غطفان تميمى . هذا كان بين القبائل التى تنتمى الى أصل واحد ، كالقبائل التى يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمى الى أصلين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

كان فى بلاد العرب نوعان من القبائل : عدنانية ، ويمانية ، نزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سيل العرم الى جهات كثيرة من الشمال ، فحافظت على لهجتها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتا الأوس والخزرج اللتان عمرتا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قحطانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تضعا على رأسيهما زعيما عدنانيا ، تلك كانتا تعدانها مسبة لا تزول عنهما وصمتها مابقى الفرقدان . فكان قبولها لزعامة محمد صلى الله عليه وسلم وهو من صميم قريش ، غير آبهتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبا فى نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عزوه إلا الى عظم سلطان الاسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الاسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تينك القبيلتين ، فبقى منهم قوم على كفرهم باطناً ، وإن كانوا التحفوا الاسلام ظاهرا ، وأولئك كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى

على النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أخصائه ، ولـكنه كان يقبل منهم ظاهرهم ، وا كلاً سرائرهم الى الله ، ما داموا خاضعين لحـكومته ، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته . فـكان ضررهم ينحصر فى حل عزائم المؤمنين، إذا دعاهم الرسول للجهاد ، بنفث الذعر فى قلوبهم ، وبث اليأس فى نفوسهم ، بالتهويل فى قوى أعدائهم ، والمبالغة فى عـددهم . فاذا لم تفلح وسائلهم فى صرفهم ، عمـدوا الى ما هو أفعل فى إفشالهم ، فخرجوا معهم ، حتى إذا تلاقى الجمعان فى ساحة الوغى تبادروا الى الهزيمة ليجرّوا المؤمنين معهم ؛ وهو تدبير خطير يؤثر فى القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير ؛ فـكان النبي صلى الله عليه وسلم يغض الطرف عن فعلهم ، ويقبل واهن أعذارهم .

فاذا وضعت الحرب أوزارها، وعاد المسلمون الى بلادهم ، عادوا الى سابق إرجافهم ، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم ، وروجوا من سيء المبادئ ، وسقيم الآراء ، ما تتسمم به النفوس ، وترتبك العقول ، فـكانوا أشد على النبي وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته ، المتوعدين بحل جماعته . كل هذا ولا يأذن صلى الله عليه وسلم فى اصطلامهم لاتقاء شرهم ، لمخالفة ذلك للمبدأ الاسلامى العظيم من قبول الظاهر ، وترك الباطن لعلام السرائر ؛ وهـذا مبدأ جليل القدر ، بعيد الأثر فى تربية الأمم على احترام الحياة البشرية ، وعدم الإسراف فى سفك الدماء جريا وراء الظِنَن الحزبية . والأمة التى تربى على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول ، تمضى فى تطبيقه فى جميع أدوارها ، كتقليد من تقاليدها الاجتماعية ، فتتقى شرور التناحر فى حياتها المدنية ، حيث تختلف المبادئ ، وتتباين المذاهب ، فلا تتصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر . وهذا الضبط للنفس من أجلّ ما تتصف به الأمم الرشيدة ، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية ، وهو كما ترى وليد الديانة الاسلامية .

ومما يوجب الدهش فى أمر الاحتمال الذى أمر به الاسلام حيال المنافقين ، أن ما وصفهم به القرآن من المخادعة والمراوغـة ، وبذر بذور الفتن بين الفئام ، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين ، مما لا تطيقه إلا أمة بلغت من ضبط النفس ، وكبح الهوى ، درجة ليس بعدها مرتقى . ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم فى الـكتاب الـكريم إدلالا على ما نقول :

قال تعالى : « ومن النـاس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين امنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بمـا كانوا يـكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنمـا نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولـكن لا يعلمون . وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلوْا الى شياطينهم (أى الى إخوانهم فى الـكفر) قالوا إنا معكم إنمـا نحن مستهزئون » .

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرَسولُ الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرْهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

« هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لايفقهون » .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم فى صميمها ، والنبى غير مبال بهم ، حتى تفاقم شرهم ، فنزل فى حقهم قرآن يهددهم بأخذهم بالعنف ، فقال تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلا » ، أى لئن لم يقلع المنافقون عما هم بسبيله من المفاسد ، لنسلطنك عليهم ، فيضطرون للجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الاسلام على مطاولتهم حتى لم يبق فى جزيرة العرب من يصغى الى إفكهم ، ففنوا فى جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الظنن والاتهامات ، حتى تتغلب الآراء الجديدة ، فتثوب الجماعة الى رشدها ، وتستقر الأمور فى نصابها (راجع تواريخ الثورات الكبرى) .

* * *

لم تكن عوامل الفساد فى جماعة المسلمين الأولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت تجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنوقينقاع ، وبنوالنضير ، وبنوقريظة ، وقد ساءها أن تتأسس فى يثرب ديانة يُتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبيلتى الأوس والخزرج ، فتجليهم عن البيئة التى اتخذوها دار هجرة لهم ، وتعيد لهم عهد الاضطهاد الذى ذاقوا مرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوأتها العداء ما استطاعوا اليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الاسلام يخالطون المسلمين ، ويسعون بينهم بالنمائم والإرجافات ، وينقلون الى الآخرين ما يقفون عليه من الأخبار ، وما يترامى اليهم من الأسرار .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أحبار متضلعون فى الثقافة الدينية ، وعارفون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الاسلامية كان يتوقف على تأثيرها فى العقول والقلوب ، وهؤلاء الأحبار كانوا لا يَنُون فى مهاجمة عقائد الاسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدها ،

فكانوا بهذا العمل مثيرين على الاسلام حربا أدبية ، أفعل فى الصد عنه من الحرب المادية ؛ فلو كان فى مكان النبي صلى الله عليه وسلم الأمة العربية بأسرها فى أميتها وجاهليتها وبعدها عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأحبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، فى مستوى أمثالهم من رجال الدين فى البيئات المتحضرة . واليهودية أقدم الأديان السامية بعد دين ابراهيم ، وأهلها يدّعون أن ماجاء بعدها قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروجون هذه الدعوى الى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينزل الاسلام فى هذه البيئة من النضال الدينى ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه لم يستمد وجوده من دين سابق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذى استمد كل دين مادته منه ، كما قرر ذلك بقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

لهذا السبب جاءت فى القرآن آيات كثيرة جدا فى مجادلة اليهود وإلزامهم الحجة ، فسردت ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبل موسى عليه السلام ، وما كانوا يقابلونهم به من الالتواء والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ، ثم عقبت ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهروه فى مواطن شتى من العصيان والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع فى أسر الأمم الفاتحة ، حتى أدى ذلك الى هدم هيكلهم المقدس مرات ، وتشتيتهم فى الأرض ، وضياع استقلالهم فى عقر دارهم ، يتخلل ذلك ما عمدوا اليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل والتحريف حتى حللوا كثيرا مما كان محرما عليهم .

فهذه الناحية من القرآن الكريم كشفت عن أصالته فى سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ، وعن تحليه بضروب المناعات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التى اقتضاها الجدل بين الدينين أبانت بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة واحدة ، مرتبطة بأرض معينة ، لا يصح لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة فى أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثانى على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع لكل ما بلغته من خير فى جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به من مزية الإطلاقية ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

فى هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الاسلام عن وجوده وإقام دولته ، ومنها امتد الى أقطار الأرض ، ولمّا يبلغ مداه بعد ؟ (يتبع)

محمد فريد وجدى

السُّنَّة

الوفاء بالعهد

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعُ خِلالٍ مَنْ كنّ فيه كان منافقا خالصا : مَن إذا حدّثَ كَذَب ، وإذا وَعَد أَخلف ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فَجَرَ ؛ ومن كانت فيه خَصلةٌ منهن كانت فيه خَصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها » . رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، وفى كتاب الإيمان .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمور : (١) بيان معنى النفاق ، وهل ينطبق هـذا المعنى على من كانت فيه هـذه الخصال أو بعضها ؟ (٢) بيان قيمة الوفاء بالعهود فى نظر الشريعة الاسلامية وما يترتب على نكثها من آثام وأضرار . (٣) بيان ما يترتب على كل خصلة من باقى الخصال المذكورة فى الحديث من مضار خلقية واجتماعية .

(١) معنى النفاق فى اللغة : مخالفة الظاهر للباطن . ومعناه فى الشرع : الاعتراف بصدق الرسول باللسان فقط مع كون القلب منكرا غير مقر . وإن شئت قلت : هو الإقرار باللسان والإنكار بالقلب . فالمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ فكانوا شرا على المسلمين من المشركين الذين كانوا يجاهرون بالعدوان ، ويعلنون عبادة الأوثان ؛ لأنهم كانوا يختلطون بهم ويعرفون أسرارهم المتعلقة بالجهاد وغيره ، ويحاولون التأثير على بعض المؤمنين المخلصين ليفسدوا عليهم اعتقادهم . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متصلا بالوحى الإلهى حقا ، وكان الله سبحانه يحذر النبى وأصحابه من شرهم ، ويبين لهم ما يخفون من عقائد ، لكان خطرهم على الاسلام يومئذ عظيما . ولكن الله سبحانه حذر منهم نبيه ، وأنزل فيهم كثيرا من الآيات ، وهددهم بالعذاب العاجل والآجل .

وقد كانت تبدر منهم هنات تدل على نفاقهم ، كتخلفهم عن الغزو ، وانتهاز الفرص للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، وبث بذور العداوة والبغضاء بينهم . فمن ذلك ما روى البخارى معناه من أن المسلمين كانوا فى غزوة ، فوقع شقاق بين رجلين ، أحدهما من الأنصار ،

والآخر من المهاجرين ، فاستغاث كل منهما بقومه على عادة الجاهلية كى يستفزهم لمناصرته فيقع القتال بين الفريقين ؛ وكان فى القوم رأس المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول ، فانتهز الفرصة ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ . فلما بلغ رؤساء الأنصار ورؤساء المهاجرين هذا الأمر ، غضبوا وطلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بقتل ابن أبى ؛ فأبى عليهم ذلك ، وقال لهم : إنكم إذا قتلتموه يقول الناس : إن محمدا يقتل أصحابه . وأصلح بينهم ، ونهاهم عن التمسك بعادات الجاهلية الفاسدة .

وقد أنزل الله فى ذلك سورة المنافقين ، فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » الخ ، وقال فيها : « يقولون لئن رجَعْنا الى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ولعل قائلا يقول : إنك قد عرّفت النفاق بأنه الإقرار باللسان مع الإنكار بالقلب ؛ والكذب وصف للإقرار اللسانى ؛ وهؤلاء قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، فكيف يصفهم الله بالكذب فى هذا القول مع كونه صدقا لا شك فيه ؟

والجواب : أن قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، وإن كان مطابقا للواقع ونفس الأمر ، ولكنه ليس مطابقا للواقع عندهم ؛ والكذب هو عبارة عن عدم مطابقة الواقع فى نفس الأمر أو فى زعم المخبر ؛ فالذى يخبر بخبر يعتقد أنه ليس بصحيح يكون كاذبا فى نظر الشرع ، وإن كانت صيغة الخبر صحيحة ، لأن الشارع يعتبر النية فى هذا المقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » . ألا ترى أن المجتهد إذا أخبر بخبر يعتقد صدقه ولم يكن صادقا فيه يثاب عليه ؟ لأنه إنما أخبر بناء على اعتقاد يرضاه الشرع ويقره . وبعضهم يقول : إنهم كاذبون فى الشهادة ، لأن قولهم نشهد ، يتضمن دعوى أن هذا يسمى شهادة ؛ والشهادة فى لسان الشرع يشترط فيها أن يكون ما فى القلب مطابقا للنطق باللسان . وتسمية قول الزور شهادة من باب التجوز ، لأن المفروض فيها أن يكون اللسان فيها مطابقا لما فى القلب ؛ فمن شهد الزور فقد سقط فى نظر الشريعة عن الاعتبار . وهناك وجهان آخران فى الجواب لاحاجة الى ذكرهما هنا .

من هذا تعلم أن المنافقين بهذا المعنى من أرذل الكافرين وأخسهم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولذا قال تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » . فلهم الخزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة سوء العذاب .

ومما لا خفاء فيه أن النفاق بهذا المعنى ليس بمقصود فى هذا الحديث ، وإنما المراد أن هذه الخصال السيئة يتجافاها المؤمنون حقا ، الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام ، وعملوا بما جاءهم به

الرسول صلوات الله عليه من مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات . فهذه الخصال المذكورة فى الحديث لا ينبغى أن تصدر إلا من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وعلى هذا يكون معنى الحديث أن صاحب هذه الخصال شبيه بالمنافقين فى أعمالهم ، وإن كان مؤمنا بقلبه مقرا بلسانه .

وبعضهم يقول : إن النفاق ينقسم الى قسمين : نفاق فى العمل ، ونفاق فى الاعتقاد . فالذين يعملون ما نهى عنه الشارع من الرذائل الخلقية مع اعتقادهم بصدق الرسول فيما جاء به ، منافقون فى العمل دون الاعتقاد . ومن ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لحذيفة : هل تعلم فىّ شيئا من النفاق ؟ فان مراده نفاق العمل طبعا .

(٢) الوفاء بالعهود فى نظر الشريعة الاسلامية فرض من الفرائض المقدسة التى ينبغى القيام بها على وجه تام لا انحراف فى أى ناحية من نواحيه . ويطلق العهد فى اللغة على معان كثيرة ، منها الأمان ، يقال : أعطى لفلان عهدا ، إذا أمنه من شر ؛ ومنها اليمين ، يقال : علىّ عهد لأفعلن كذا ، أى يمين ؛ ومنها الذمة ، يقال : لفلان علىّ عهد ، أى ذمة . وهذه المعانى كلها قد أمرت الشريعة الاسلامية بالوفاء بها . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى أن من خالف عهدا من العهود كانت فيه خصلة من خصال المنافقين المذمومة .

من أجل ذلك قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . والوفاء والإيفاء أيضا : هو القيام بما يقتضيه العقد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقا بأمر مادى أو أدبى ، كالتعاقد على معونة فى عمل من الأعمال ، أو ضمان ، أو كفالة ، أو مناصرة على عدو أو دفع أذى ، أو غير ذلك من الأمور المشروعة التى تستلزمها الحياة الانسانية .

فمن عاهد ثم غدر كان من شر الفجار الآثمين فى نظر الاسلام ، ولذا ذم الله سبحانه وتعالى المشركين بنكث العهود أقبح ذم ، فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » ؛ فقد وصفهم الله بانهم أسوأ حالا من الدواب التى لا تعقل معنى الشرف والكرامة ، ولا تقيم للعهود والمواثيق وزنا ، وذلك لأن الانسانية تقتضى تبادل المنافع ودفع الشر بقدر المستطاع ، فاذا تعهد أفراد أو جماعات على أن يكف بعضهم عن إيذاء بعض ، أو ينفع بعضهم بعضا ، فانه يجب عليهم أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه بالدقة ؛ وإذا لم تكن للعهود والمواثيق قيمة عندهم ، ارتفعت الثقة من بينهم ، وأصبحوا كالحيوانات العجم الذين لا همّ لهم إلا انتهاز الفرص لقضاء شهواتهم وملء بطونهم ، بل كانوا أضر على المجتمع الانسانى من الحيوانات ، لأن الحيوان شره محدود يمكن دفعه بسهولة ، أما الانسان فشره مستطير لا يقف عند حد ، ولا يمكن دفعه إلا بعد مشقة وعناء .

(٣) أما الفجر فى المخاصمة ، فمعناه أن يكثر الشخص فى القول على وجه غير صحيح كى يظهر على خصمه ويقتطع منه حقا بالباطل ، فيأتى بزخرف القول ، ويستعمل العبارات التى لا يستطيع خصمه إفحامه فيها ، ويزين الباطل كلما وجد لذلك سبيلا .

ولا ريب فى أن ذلك مذموم كل الذم ، فقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أبغض الرجال الى الله تعالى الألدُّ الخَصِم » . والألد : الشديد فى خصومته ؛ والخصم بفتح الخاء وكسر الصاد : الشديد فى خصومته أيضا ؛ قال تعالى : « وهو ألد الخصام » أى شديد المخاصمة فى الباطل . وكفى بذلك زجرا لمن تحدثه نفسه باقتطاع حق الغير ، وأخذه منه بالباطل ، اعتمادا على قوة فى المنطق ونحوها . فمن الفجور المرذول أن ينتزع شخص من آخر ما ليس له بقوة المنطق وحسن البيان ونحوهما من الوسائل المفحمة للخصم بالباطل . ومن قضى له بشىء من ذلك فكأنما قطعت له قطعة من النار ، كما ورد فى حديث آخر .

أما الكذب : فهو أن يقول الانسان الباطل الذى يعرف أنه باطل ويعتقد أنه باطل ، وهو ضد الصدق . فإن كان ذلك متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم كان من أشد الكبائر وأشنع الجرائم التى تضر المجتمع الانسانى ، وتقضى على العدل والنظام الاجتماعى شر قضاء . فإن الذى يكذب ويقول الزور يقتطع حقوق عباد الله أو يثلمهم فى أعراضهم أو يؤذيهم فى أنفسهم ، فهو أضر على المجتمع الانسانى من كل ما يضره ويؤذيه . فقد يكون ذلك سببا فى بث الفوضى ، وإغراء المجرمين على اقتراف الجرائم ، فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتهون تحت ستار الكذب .

ومن ذلك الكذبُ على الله ورسوله ، فمن استهوته شهوته الى أن يقول : قال الله كذا ، أو قال رسوله كذا ، وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك ، فإنه يكون قد ارتكب جريمة من أرذل الجرائم الخلقية ، وليس لصاحبها إلا أن يتبوأ مقعده من النار .

هذا وقد يعفى عن الإخبار بغير الواقع فى بعض المواطن ، كالكذب لإنقاذ مظلوم من الهلاك ، أو تعظيم قوة الأمة الحربية فى نظر الخصم ليرهب جانبها ، أو تضليل الخصم المتعدى ليدفع شر عدوانه ، أو نحو ذلك من مهام الأمور ، بل قد يكون ذلك واجبا إذا اقتضاه النظام الاجتماعى . وقد ورد فى ذلك أحاديث ، وليس فى ذلك ضرر على الصدق ، لأن هذه الأحوال ليست هادمة له ، بل هى فى الواقع تزيد معناه تأييدا ، لأن الصدق إنما كان ممدوحا لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الانسان . ولا نظر فى هذه الأحوال إلا للفائدة التى ينشدها العقل والدين ، ويمتدح من أجلها الصدق ؟

عبد الرحمن الجزيرى

ذكرى شهر ربيع الاول

ميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

يوافق صدور هذا العدد اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وهو الشهر الذى شرفه الله بميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان ذلك فى اليوم التاسع منه ، من العام الأول لحادثة الفيل ، وهو يوافق اليوم العشرين من إبريل سنة (٥٧١) بالتاريخ الميلادى .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عمه أبى طالب بشعب بنى هاشم . وقد تولت الإشراف على ولادته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، وهو الذى صار بعد بعثته من أجلاء أصحابه .

لما أشرق العالم بنور وجهه الوضاح ، أرسلت أمه آمنة بنت وهب لجده عبد المطلب سيد قريش ، تبشره بميلاد حفيد له ، فأقبل من فوره وأسماه محمداً .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبى لهب .

وكان من عادة العرب أن يرسلوا بأولادهم الى البادية ليمضوا فيها عهد الرضاع ، اعتقادا منهم أن ذلك يكون أدعى الى النجابة ، ذهابا منهم أن تمضية أولادهم هذا العهد فى المدن يجعلهم خامدى الذهن ، ضعيفى الارادة . فكان الطفل محمد بن عبد الله من حظ حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد . وكان اسم زوجها أبا كبشة وهو والده من الرضاع .

ذكرنا هنا أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت فى السنة الأولى من حادثة الفيل . وتتلخص هذه الحادثة فى أن أصحمة ملك الحبشة كلف أبرهة عامله على اليمن ، وكانت خاضعة لسلطانه ، أن يبنى كنيسة بصنعاء ، ويصرف العرب من الحج الى الكعبة الى الحج اليها . فصدع بأمره وسار على رأس جيش لجب الى مكة لهدم الكعبة ، وكان من مطاياه فى حروبه فيل ضخم على عادة الفرس والهنود وغيرهم فى استعمال الفيلة فى حروبهم ، ولم يكن للعرب عهد بها ، فنزل بجوار مكة يتأهب للشروع فيما هو بسبيله ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل (أى جماعات) ، ترميهم بحجارة من سجيل (أى من طين متحجر) ، فجعلهم كعصف مأكول ، أى جعلهم كورق الشجر الذى أكلته الديدان . أخذ جمهور المفسرين هذه الآية على ظاهرها ، وأولها بعضهم بأن المراد منها أن الله أرسل عليهم ميكروبات الطاعون فاجتاحهم .

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الرابعة من عمره استردته أمه ، وتوجهت به الى يثرب لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار . وبينما هى آيبة الى مكة مرضت بالطريق وأدركتها الوفاة

بقرية فى الطريق أقرب الى يثرب منها الى مكة يقال لها الأبواء . لحضنته أم أيمن بركة الحبشية ، حاضنته الأولى ، وكفله جده عبد المطلب ، ولكنه لم يلبث أن توفى ، فكفله عمه أبو طالب والد على كرم الله وجهه ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك ثمانى سنين .

ولما بلغت سنه صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة استصحبه عمه معه الى الشام .

ولما بلغت سنه العشرين حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين قريش ومعها كنانة ، وبين بنى قيس . وسببها أن واحدا من كنانة قتل رجلا من بنى قيس ، فثارت الحرب بينهما وتورطت فيها قريش الى جانب كنانة ثم تصالحوا .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين سافر الى الشام المرة الثانية فى تجارة لخديجة بنت خويلد ، وكانت ذات مال . ولما آب بالربح الوفير وتحققت فيه الأمانة والكرامة ، أرسلت اليه تخطبه لنفسها ، فقبل صلى الله عليه وسلم زواجها ، فكان يعظمها ويجلها لعقلها وفضلها ، وهى أم أولاده جميعا إلا ابراهيم فإنه ولد من سريته مارية .

ولما صدع السيل بعض جدران الكعبة ، وشرعت قريش فى ترميمها اختلف رجالاتها فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى : حكموا بينكم رجلا ترضونه . فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم أول داخل عليهم ، فحكموه ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية منه ، فلما انتهوا الى موضعه رفعه بيده ووضعه فيه .

أما سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى شبيبته فكانت مثالا لشرف النفس وعلو الهمة ، والبعد عن السفاسف ، والإخلاص والعفاف والصدق وكرم الأخلاق والجود والحلم والشجاعة والتواضع ، لم تحفظ عليه هفوة ، ولم تحص عليه زلة . وما زال يتقدم فى سنه المباركة على هذا النحو من الكمال الفطرى حتى بلغ الأربعين ، فشرفه الله بوحيه وأرسله الى الناس كافة . وها نحن نجهد العقل ، ونكد القلم ، ونستخدم العلم الحديث كله ، لنصل الى تصوير بعض ما أفاض الله على يديه من الخير العام ، والحياة الفاضلة ، علينا وعلى الناس قاطبة ، فلا نكاد نبلغ منه إلا غيضا من فيض . ولا غرو فإن إدراك النهايات البعيدة التى كان عليها خاتم المرسلين فى أخلاقه وشمائله ، والمثل العليا التى أتى بها العالم كله ليقيمه على سواء الصراط ، والوقوف على العوامل التى صاحبت هذا الانتقال الانسانى الجلل ، كل ذلك لا يكون إلا على قدر عقولنا لا على قدر ما هو عليه فى ذاته ؟

محمد فريد وجدى

مكان الزكاة من الشئون الاجتماعية

الضرائب والخراج لا يمنعان وجوب الزكاة

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد : فقد نشرت لنا المجلة فى الجزء الأول الصادر فى المحرم سنة ١٣٥٩ مقالا فى « مكان الزكاة فى الاسلام من الشئون الاجتماعية » ، بسطنا فيه عناية القرآن بحق الفقير ، وما يجب على الأغنياء من التراحم ، والبذل ، ومساعدة الضعفاء ، والمساهمة بأموالهم فى صلاح الأمة وحياتها حياة طيبة قوية . وقلنا : إن الاسلام جعل الزكاة فرضا من الفروض الدينية ينفذه بالقوة ، ويقاتل من امتنع عن أدائه ؛ جعلها فى الذهب والفضة ، وفى البضائع التجارية ، وفى الماشية ، وفى الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وهى فى الوقت نفسه تسعف المسكين والفقير ، وتصلح من شأنهما ، وترد من غائلتهما . وقلنا : إن هذا النظام سلكته الشريعة بعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم كمورد دائم للفقراء والمساكين ؛ ولم تقف عند هذا الحد ، بل وكلت الأمر فيما وراء هذه المقادير ـ إذا استدعته الحاجة ـ الى العاطفة الدينية الأخوية ، ورغبت فى البذل بعظيم الثواب فى الآخرة ، وبعظم الإخلاف فى الدنيا .

وقد جاءنا خطاب من الفاضل « محمود الرويني » بالمنصورة من قراء مجلة الأزهر ، يتلخص فى أنه يرى أن أرباب الأموال يدفعون من أموالهم فوق مقادير الزكاة التى حددتها الشريعة الى الحكومة ، باسم الضرائب والخراج ، والحكومة تنفق ما تأخذه فى مصارفها المبينة فى ميزانيتها . ويرى أن بعض هذه المصارف من مصارف الزكاة . ويقول بعد ذلك : « فماذا ترون قد بقى فى ذمة الملاك من حق الزكاة ؟ » . ويرى بذلك أن حاجة الفقراء التى يجب سدها على المسلمين الأغنياء أصبحت بهذا الوضع فى عنق الحكومة التى لا سبيل لنا عليها ؛ وكأنه يريد أن يصل من ذلك الى سقوط حق الزكاة عن الأغنياء ، والى إلقاء التبعة فى إهمال الفقير الذى يهدد الغنى فى حياته على الحكومة ، ويرجو أن يقرأ فى ذلك بيانا مفصلا يرضى الله ورسوله .

ويكفينا فى هذا البيان المفصل الذى يلتمسه أن نقول :

إن الضرائب نظام مالى سياسى ، استدعته فى نظر الحكومة المصلحة العامة ، تفرضه الحكومة ـ بناء على ما تراه فى المصلحة ـ مرة ، وتلغيه أخرى ، وتخففه ثالثة . فليس لها الوضع الدينى الدائم المفروض عينا على المالك القادر باعتباره مسلما ، كما فرضت عليه الصلاة والصوم . ولا يمكن أن تقوم الضرائب — ووضعها كما نعلم — مقام الزكاة التى يقول الله فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وإذا كان الناس يحسون بشىء من الإرهاق فى بعض

ما يفرض عليهم من ضرائب، فتبعة ذلك لا ترجع الى الفقير بحرمانه من حقه الذى أوجبه الله له. وسبيله مطالبة الحكومة بالاقتصاد فى مصارفها، ومحاسبتها على ما تجمع وتنفق. ومحاسبة الحكومة على أعمالها عامة، مما تشهد به أصول الإسلام، وتقضى به المصلحة الاجتماعية العامة التى يضعها الدين فى المكان الأول

أما الخراج الذى تأخذه الحكومة على الأراضى الزراعية، فيرى جمهور أئمة المسلمين أنه حق مغاير لحق الزكاة، فى دليله، وسببه، ومصرفه، وحكمته؛ فلا يمنع أحدهما الآخر. وبالمقارنة بين أدلة هؤلاء وأدلة مخالفيهم يتبين جليا رجحان مذهب هؤلاء الجمهور، مع ملاحظة أن مخالفيهم لا يرون تأثير الخراج على كل أنواع الزكاة، وإنما يرون تأثيره خاصا بزكاة الزروع؛ أما زكاة الأموال وما اليها فلا تأثير للخراج عليها، لأنه غير متعلق بها، وإنما يتعلق بالأرض التى يتعلق بها أو بزرعها العشر.

وإذا كان الاتجاه فى الضرائب والخراج هو ما ذكرنا، وليس أحدهما مبذولا بحكم الدين وقضاء واجب النفس فى التطهير من خلق الشح، ولا بقضاء واجب الأخوة الدينية التى أراد الله أن يستكمل بها إنسانية المؤمن، فلا ينبغى التفكير فى محاولة اعتبارهما قائمين مقام الزكاة.

فالزكاة فرض دينى كالصلاة والصوم يجب على الانسان محاسبة نفسه عليه متى ملك النصاب فارغا – كما يقول الفقهاء – عن حاجته الأصلية.

ولعل صاحب السؤال يذكر الكلمة التى ختمنا بها مقالنا الذى يشير إليه. وتذكيرا له بها نختم بها هذا البيان:

« وبعد فليسمح لى حضرات الأمراء والأغنياء والمفكرين أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة:

« إن التطور الفكرى المتناقض قد تكاملت أسبابه، وبدت مظاهره، وصرنا به على ملتقى السبل، فإما أن نسير فى سبيل الرأسمالية كما يلوح فى أفق الأغنياء فنصطليها نارا حامية من العاطلين والفقراء، وإما أن نسير فى سبيل الشيوعية كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء فنصطليها تخريبا وتدميرا. ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر، وأرشدنا ديننا – وكتابه قائم بين أيدينا – الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه وشر تلك، ويجعل الأمة وحدة متكافلة فى البر والتقوى: « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود شلتوت

العوامل الادبية التى اعتمد عليها الاسلام

فى تقويم الشخصية الانسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الاسلام نشأ فى شبه الجزيرة العربية ، فآخى فى سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وألف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُبُط الأدبية والمادية التى لابد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحوافظ الذاتية بما صان وجودها ، فى جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيانها من بواعث التطور ما دفعها للترقى فى جميع مجالات النشاط العلمى والعملى ، خالصة من جميع القيود التقليدية التى تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطئ من سيرها ، فوصلت فى نحو قرنين الى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهى ميزة لم تمنحها إلا أمم معدودة فى الأرض .

وصلت الى هذا الأوج فى خُطًى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبَّر ومُثُل عليا ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخر أدبى متأصل فى طبيعتها ، أو تمرست به أجيالا متعاقبة من حياتها .

فإذا كان هذا الحادث الفذ فى تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه فى صعوبة التعليل تأثيره طفرة فى جماعات مفككة الأوصال لم تعتد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤثر فى تاريخها أن داعيا دعاها إليها فى عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا ممتازا ، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهده البشرية من قبل ، فى أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الانسانية أجمع ، فى أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، تثور ثوران الزوبعة لا تفرق فى هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، فى طغيان من القائمين بها ، لا تردها حكمة ، ولا تردعها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذى أحدثه الاسلام ، رافقته رحمة بالمقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة فى مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررة دُرست مقدماتها ونتائجها فى ملاوة من الزمان صُرفت فى الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات فى شىء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التى مرت بالانسانية فى عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التى يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التى سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال فى العالم الانسانى ، فى بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم فى غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرا ، ومصاحبا لأعظم انقلاب أدبى لم يصل اليه النوع الانسانى بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطا بعيد المدى فى تفلية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول الى أبعد مناشئها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ؛ فاذا أنجحنا فى ذلك أطرفنا العالم بجديد من البحوث لا تقف دعايته للاسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

مواطن التأثر فى النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة فى الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلى لا معدى عن الخضوع له .

فموطن التأثر بالدعوات هو العقل ، لذلك تعقّبه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجّح لأقربها الى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل الى كماله بعد ، فما يقرر حقيته اليوم ، وهو فى درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد الى ما كان نقضه من قبل .

قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُمِّله بفطرته من العلم الضرورى بجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدهية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشيء فى مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة فى جميع أفراد النوع البشرى لا تتخلف فى بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخلفها .

فهذا السلطان الفطرى للعقل كاف فى حمايته من الضلال فى أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فاذا أقام الناس سلطان العقل الفطرى ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

العوامل التى تمكن بها المضلون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطرى بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع

المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا فى فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهلياتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التى تقع فى التحجر الاجتماعى لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون فى هدم سلطان العقل الفطرى ، باعتمادهم على جهل الجماعات التى تبلى بهم ، وبإلهائها بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع فى إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياه من التعاليم وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته فى هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل اليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثلات الى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جمودها ، نير الدين ، الدين الذى ألفته الأوهام ، لا الدين الفطرى الذى جبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الاسلام فى بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الاسلام فى بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنان الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشئون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الانسان ، يعتريه من الجمود والتحجر ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكنه جعله فى دائرة محاولاته يترقى فى إدراك أسراره ، واستشراق أنواره ، كما يترقى فى فهم الوجود الذى يعيش فيه ، وفى تحصيل العلم الذى يتعرفه به ، فأصبح الاسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الانسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشيء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الاسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معاً ، وهو ما دل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود اسبانيا الغربية بأوربا ، الى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقا كله ، فى نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أمم برمتها قبلته دينا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمى فذ يجب درسه ، وتعرف ما يهدى اليه العلم من عجائبه .

هـذا هو السبب الرئيسى فى تسارع الناس الى قبول الاسـلام ، وفى شدة تمسكهم به ، وتحمسهم له ، وبذلهم المهج رخيصة فى سبيله . ونحن فى دراستنا للاسـلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الانسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ؛ والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا فى هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقا فى نفوس الشباب المتعلمين ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الاسلام

عبد الله بن عمر

— ٢ —

خرّجت مدرسة الاسلام الأولى من قادة الفكر، وزعماء العلماء ورجال العرفان، كثرة لا تعرف فى التاريخ لمدرسة أخرى فى أمة من الأمم التى سبقت الأمة الاسلامية أو عاصرتها. وقد كانت تلك الكثرة متفاوتة فيما بينها تفاوت قواها المدركة واستعدادها الفطرى؛ وقد اشتهرت منهم جماعات فى جوانب الحياة المتناوحة، وكان من أشهر هؤلاء عبادلة الاسلام، الذين برزوا فى العلم وتميزوا بالنبل، يقدمهم عبد الله بن عمر أحد ستة من تلاميذ هذه المدرسة لم يكن فى رجال الاسلام أروى للحديث، ولا أعلم بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم منهم؛ وكان عبد الله منذ نعومة أظفاره ذكى الفؤاد ملهما، لقنا لبقا. روى البخارى فى صحيحه عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهى مَثَل المسلم، حدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البادية، ووقع فى نفسى أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، وفى رواية: فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فقالوا: يارسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هى النخلة. قال عبد الله: فحدثت أبى بما وقع فى نفسى، فقال: لأن تكون قلتها أحب الىّ من أن يكون لى حُمْر النَّعم».

وكان ابن عمر شديد الأخذ لنفسه وتكييفها بما يعلم، لا يتكاءده فى سبيل العمل شىء، ففى الصحيحين عنه: «كان الرجل فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبى صلى الله عليه وسلم، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبى صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاما أعزب أنام فى المسجد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، فرأيت فى المنام كأن ملكين أخذانى فذهبا بى الى النار فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا لها قرنان كقرنى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار! فلقيهما ملك آخر، فقال لى: لم ترع! فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل! قال سالم — هو ابن عبد الله بن عمر — فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا». وفى بعض الروايات «فرأيت فى يدى سُرْقَةً من حرير فما أهوى بها الى مكان

فى الجنة إلا طارت بى إليه ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن عبد الله رجل صالح » . وهذه شهادة عظمى من الصادق المصدوق ، ترفع درجة عبد الله الى ذروة اليقين .

ويحدثنا نافع مولاه : « أنه كان له مهراس فيه ماء ، فيصلى ما قُدِّر له ثم يصير الى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ، ثم يرجع الى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ، ثم يثب فيتوضأ ثم يصلى ، يفعل ذلك فى الليل أربع مرات أو خمسا » . وكان رضى الله عنه يكره من الناس الملق له ، فقد روى « أن رجلا قال له : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله ! ! فغضب وقال : إنى لأحسبك عراقيا ، وما يدريك علام أغلق بابى ! ! » . وكان من أحلم العرب ، جعل رجل يسبه وهو ساكت ، فلما بلغ باب داره التفت اليه فقال : « إنى وأخى عاصم لا نسبّ الناس » . وكانت له فى الله تعالى ثقة لا تحد ، فقد روى ميمون بن مهران « أن أصحاب نجدة الحرورى مروا بإبل لابن عمر فاستاقوها ، فجاء الراعى فقال : يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل ، وأخبره الخبر ، قال : فكيف تركوك ؟ قال : انفلتّ منهم لأنك أحب الىّ منهم ؛ فاستحلفه فحلف ، فقال : إنى أحتسبك معها ! فأعتقه ؛ فقيل له بعد ذلك : هل لك فى ناقتك الفلانية فإنها تباع فى السوق ؟ فاراد أن يذهب إليها ، ثم قال : قد كنت احتسبت الإبل فلأى معنى أطلب الناقة » ؟ !

وقد رزق الله تعالى عبد الله عمرا طويلا ، فنبل وساد حتى كان شيخ قريش وعالمها ، يرجع إليه فى الملمات ، ولا سيما فى أحداث الفتن التى فرقت كلمة المسلمين . وكان شديد النكير على زعماء الفرق الذين تحدثهم أنفسهم بمس جانب الاحترام والإجلال فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخارى فى الصحيح « جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا ، فقال : من هؤلاء القوم ؟ قال : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبدالله ابن عمر ، قال : يا ابن عمر إنى سائلك عن شىء فحدثنى عنه : هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم ؛ فقال : تعلم أنه تغيّب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ؛ قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ؛ قال : الله أكبر ! قال ابن عمر : تعال أبيّن لك : أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ! وأما تغيبه عن بدر فانه كانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ؛ وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمان . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك » .

وروى البخارى أيضا « جاء رجل الى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاسن عمله ،

قال : لعل ذاك يسوءك ؟ ! قال : نعم ، قال : فأرغم الله بأنفك ! ثم سأله عن عليّ فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لعل ذاك يسوءك ؟ ! قال : أجل ، قال : فأرغم الله بأنفك ! قال : انطلق فاجهد عليّ جهدك » .

وقد كان لعبد الله بن عمر موقف من النزاع الذى مزق وحدة المسلمين بسبب الخلافة من أنبل المواقف وأسلمها ، استمع فيه الى نصيحة أبيه الفاروق رضى الله عنه : روى الثقات من المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما طعن وأيس من نفسه قال لابنه عبد الله : اذهب الى عائشة واقرئها منى السلام ، واستأذنها أن أقبر فى بيتها مع صاحبي ، فأتاها عبد الله فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ، ثم قالت : يابنى أبلغ عمر سلامى ، وقل له : لاتدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا فإنى أخشى عليهم الفتنة فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرنى أن أستخلف ؟ ثم قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وسماهم ، ثم قال لهم : وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله ابن عباس فان لهما قرابة وأرجو لكم البركة فى حضورهما وليس لهما من أمركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شىء ، قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعا فاستخلفه فانا راضون به ، فقال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شىء ! ثم قال : يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها ! !

وأخلص عبد الله لموقفه وامتثاله نصيحة عمر إخلاصا لم يميّله ، مع الترغيب والإطماع اللذين بسطهما له حزب الزبير وطلحة فى خروجهما وإخراجهما أم المؤمنين عائشة ، فانه لما اجتمعت كلمتهم على المسير الى البصرة قال طلحة للزبير : إنه ليس شىء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص عبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : يا أبا عبد الرحمن إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس فاشخص معنا ، فان لك بها أسوة ، فان بايعنا الناس فأنت أحق بها . فقال ابن عمر : أيها الشيخان أتريدان أن تخرجانى من بيتى ، ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟ ! إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عيانا فى عافية أنالها ! فانصرفا عنه ، ثم غدا مروان بن الحكم الى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله يفيء ، فعاوداه فتكلم طلحة فقال : يا أبا عبد الرحمن إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ ، إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فان سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهى الهلكة ! فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ! !

لم يحد عبد الله بن عمر عن هذا المبدأ رغم تقلب الأعاصير ، ورغم توسل زعماء الأشياع والأحزاب بكل وسيلة الى ضمه اليها لما له من المكانة السامية فى نفوس المسلمين ، فان الموقف لم يكد يصفّى بين علىّ وحزب عائشة ، ويقف معاوية وجها لوجه أمام على كرم الله وجهه ، حتى التجأ معاوية الى ابن عمر يطمعه ويرغبه لينضم اليه ، فكان موقفه معه هو موقفه مع طلحة والزبير ، فقد كتب اليه معاوية « أما بعد : فانه لم يكن أحد من قريش أحب الىّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، وإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فان أنت أبيت كانت شورى بين المسلمين » . فكتب اليه عبد الله فى رده « أما بعد : فان الرأى الذى أطمعك فى هذا هو الذى صيّرك الى مصيرك ، وقد حدث أمر لم يكن الينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعتُ الى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت ، فاغن عنى نفسك » .

وقد زاد هذا الموقف المسالم من عبد الله بن عمر مكانه فى قلوب المسلمين ، وبهذه المكانة وصل عمرو بن العاص الى قلب أبى موسى الأشعرى فى التحكيم ، فقال له فى اجتماعهما : «هل لك أن تخلعهما جميعا وتجعل الأمر لعبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبسط فى هذه الحرب يدا ولا لسانا ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؟ ! فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيرا ! وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله ابن عمر أحدا ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، ولفضل عبد الله فى نفسه » . فلما بلغ عبد الله ما كان من رأى أبى موسى كتب اليه « أما بعد : يا أبا موسى فانك تقربت إلىّ بأمر لم تعلم هواى فيه ، أكنت تظن أنى أبسط يدا الى أمر نهانى عنه عمر ، أوكنت ترانى أتقدم على علىّ وهو خير منى » ؟ !

رحم الله عبد الله ، فقد خلص نفسه من فتنة جامحة جائحة ، ونجا منها صفيا ، ومات والمسلمون لا يرون أحدا يعاصره أفضل منه ؟

صادق ابراهيم عرجون

آداب الجلوس

من آداب الجلوس أن يجلس الانسان حيث يجد متسعا له ، وقد كان هذا دأب الكملة من أهل هذه الملة . أما التضييق على الجالسين بقصد التصدر فلا يكسب أهله إلا ضعة .

قال الأحنف بن قيس : ما جلست مجلسا خفت أن أقام منه لغيرى .

وقال الشعبى : لأن أدعى من بعيد أحب الىّ من أن أدفع من قريب .

عمر بن عبد العزيز

— ٥ —

رأيه فيمن سب الخليفة :

نشأ عمر على قول الحق ، لا يحابى كبيرا ، ولا يمالئ عظيما ؛ فشاوره سليمان بن عبد الملك يوما فى رجل سبّه ، فقال من حوله من الناس : اكتب بضرب عنقه ، وعمر بن عبد العزيز ساكت لا يتكلم ، فقال له سليمان : ما الذى أسكتك ياعمر ؟ فأجاب قائلا : أما إذ سألتنى رأيى فلا أعلم فى شرعة من الشرائع أن سبة أحات دم امرئ مسلم كان أو غيره ، إلا سبة نبى . فقام مَن عنده ومنهم عمر ، فقال سليمان : لله بلادك ياعمر ! والله لو قرشى طبخت فى مرقته لأنضجتها .

بعثه العلماء الى البادية :

أراد عمر أن ينشئ أهل البادية تنشئة دينية ، ويعلمهم ما فيه صلاح حالهم دينا ودنيا ، فبعث لهم بيزيد بن عبد الملك ، والحارث بن محمد ، ليبينا لهم كتاب الله وسنة رسوله ، وجعل لهما أجراً على ذلك ، فقبل يزيد ، ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ! فلما ذكر ذلك لعمر قال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث !

عطفه على الفقراء :

كان يعطى السائل ولا ينهره ، ويعطف على الفقراء تارة من ماله ، وأخرى من بيت مال المسلمين ، كل هذا لوجه الله ، لا يريد منهم جزاء ولا شكورا ؛ فوفدت عليه امرأة من العراق لها من البنات خمس قد لبسن لباس الجوع والفقر ، فلما وصلت الى باب بيته قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فدخلت المرأة على فاطمة زوجه وهى جالسة فى بيتها وفى يدها قطن تعالجه ، فسلمت ، فردت عليها فاطمة السلام وأذنت لها فى الجلوس ، فجلست وجالت ببصرها فى البيت فلم تر شيئا ذا بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : ما خربه إلا عمارة بيوت أمثالك ! فأقبل عمر حتى دخل الدار فمال الى بئر فى ناحيتها ، وانتزع منها دلاء صبها على طين كان يحضره فى البيت ، ولم يغض الطرف عن فاطمة ، فقالت لها تلك المرأة : استترى من هذا الطيان فانى أراه يديم النظر اليك ، فقالت : ليس هو بطيان وإنما هو أمير المؤمنين ! !

فلما انتهى عمر من عمله هذا ، دخل مصلاه فصلى ما شاء الله أن يصلى ، ثم سأل عن المرأة وأخذ يحبوها بعطفه وحنانه ، ويختار لها أطيب ما عنده من عنب كان بمكتله ويطعمها إياه ،

فلما استقر بها المقام قال لها : ما حاجتك ، ومن أنت ؟ فقالت : امرأة من العراق لى خمس بنات كُسَّد ، يفترشن الأرض ، ويلتحفن بالهواء ، ويضمن الأحجار على بطونهن من شدة الجوع ، وجئتك أبتغى حسن نظرك إليهن ! فجعل يقول : كُلُّ كُسَّد ! وأخذ القرطاس والمحبرة وقال لها : سمى كبراهن ، فسمتها ، ففرض لها ، فحمدت الله ، ثم قال لها : سمى الثانية والثالثة والرابعة ، فسمتهن ، ففرض لهن ، فحمدت الله .

فلما فرض للأربع أخذتها نشوة من الفرح ، واستفزها السرور فشكرته ودعت له ، فرفع يده ولم يفرض للخامسة ، وقال : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله ، أما وإنك أوليتنيه وأنا لست أهلا له فمرى هؤلاء الأربع يفضن على الخامسة منهن . وكتب بذلك الى والى العراق ، وسلمها الكتاب لتعطيه له ، فانطلقت به اليه ، ففضه وقرأه ثم بكى وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ! فقالت له المرأة : هل مات ؟ قال لها : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال لها : لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كتابه فى شىء ، ثم قضى لها وفرض لبناتها .

حالته قبل الخلافة وبعدها :

كان عمر قبل الخلافة من أعظم الأمويين ترفها وتملكا ، غذى بالملك ، ونشأ فيه لا يعرف إلا هو ، يلبس الحرير فيستخشنه ، ويتطيب بالدهن فتشع رائحته فى أى مكان حل به ، ويرخى ثيابه ، ويمشى مشية التبختر حتى تعلمتها الجوارى من حسنها ، وسمينها « العمرية » ، فلما استخلف أقلع عن كل شىء غير مشيته ، فإنه لم يستطع الإقلاع عنها ، لا عمدا منه ، ولكن لتعذر تركها مرة واحدة ، لذلك أمر مزاحما أن يذكره كلما عاد اليها .

عاش عيشة التقشف ، وتبذل حتى استنعم الصوف واستلانه ، فعجب له رباح بن عبيدة ، وكان تاجرا من أهل البصرة يشترى له ما أراد حين كان واليا ، فاشترى له جبة من الخز بعشرة دنانير ، فلمسها فاستخشنها ، فلما ولى الخلافة اشترى له بأمره جبة من الصوف بدينار ، فلمسها فاستلانها ، فقال له رباح : عجبا لك يا أمير المؤمنين تستخشن الحرير بالأمس وتستلين الصوف اليوم ! فقال له : هذه حال وتلك حال .

وزهد فى الدنيا طلبا للآخرة ، وآثر النعيم الدائم على المتاع الزائل ، فكان ينفق كل ماله على المسلمين وفى حوائجهم ، فعاده الناس فى مرض موته فلم يجدوا عليه غير قميص مرقع ، فقال مسلمة لأخته فاطمة : ائتنى بقميص غير هذا ، فنظر اليه عمر وقال : دعها يا مسلمة فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذى يرى عليه !

المأثور من كلامه :

إياكم والمزاح فانه يورث الضغينة وينبت الغل . إذا جاءك الخصم وعينه فى كفه ، فلا

تقض له حتى يجيئك خصمه . من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه . ما يسرنى لو أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . خذوا من الرأى ما قاله من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم ، لأنهم كانوا خيرا منكم وأعلم . الرضا قليل ، والصبر معقل المؤمن . قيدوا النعمة بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب . العفاف الأكبر القناعة وكف الأذى . إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً نهاراً فقد استحقوا العقوبة كلهم .

وقال فى وصف القاضى : ينبغى أن يجتمع للقاضى خمس خصال : أن يكون عالما بما قضى به الكتاب والسنة ، سليما ، ذا أناة ، عفيفا . فإن اجتمع فيه ذلك كان قاضيا ، وإن نقص منهن شىء كان وصما فيه .

ودخل عليه رجل يشكو ظلما فقال له : إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هى ، خير لك من أن تلقاه وقد انتقصتها .

وقال : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها ، القلوب أوعية السرائر والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرىء منكم مفتاح وعاء سره . إذا وافق الحق الهوى فهو ألذ من الشهد وأحلى . وما وجدت فى إمارتى هذه شيئا ألذ من حق وافق هواى .

عمر والغلام :

دخل على عمر فى بدء ولايته وفود المهنئين ، فتقدم وفد الحجازيين بين يديه ، ثم قام من بينهم غلام لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأراد أن يتكلم عن قومه فقال له عمر : اجلس أنت وليقم من هو أسنّ منك . فقال الغلام : أيدك الله يا أمير المؤمنين ! إن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد استحق الكلام ، ولو كان الأمر بالسن لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا ! فسر عمر من حسن جوابه وفصاحة لسانه ، وأكرمه ، وسمع منه شكاة فئته ، وقضى حوائجهم .

نفور بنى أمية من عدله واجتماعهم اليه :

حينما ولى عمر الخلافة أقبل على رد المظالم الى أهلها ، فقطع بذلك عن بنى أمية جوائزهم ، وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ، فساءت حالتهم ، وتبدل أمنهم خوفا ، وثراؤهم فقرا ، الأمر الذى دفعهم الى الاجتماع اليه ، ثم قالوا له : إنك قد أجلبت بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كانوا يفعلون ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت . فقال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم ، قال : ولكنى لا أرى ذلك ، والله لوددت أن لا تبقى فى الأرض مظلمة

إلا رددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حيا ، فاذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها ! فخرجوا من عنده ودخلوا على بعض ولد الوليد وكان كبيرهم وشيخهم ، فسألوه أن يكتب الى عمر يوبخه لعله يرجع عن إساءتهم ، فكتب اليه : أما بعد : أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، نقصا لهم وعيبا لأعمالهم ، وشتما لمن كان بعدهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق فى قرابتك ، وعمدت الى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا وعدوانا ، فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه ، فانك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت ذوى قرابتك بالظلم والقطيعة ، فوالذى نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لقد ازددت من الله بعداً فى ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء من الله عليك ، وهى كذلك ، فاقتصد فى بعض ميلك وتحاملك ، اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فرد عليه عمر قائلا : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، إنك نشأت جبارا شقيا ، كتبت الى تظلمنى وزعمت أنى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذى فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل ، إنما أنت كأحدهم ، لك مالهم وعليك ما عليهم ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، الذى استعملك صبيا سفيها تحكم فى دماء المسلمين وأموالهم برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ، ولم يكن ذلك له ولا حق له فيه ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما فى فىء المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت ثكلتك أمك ، أم بايعت بيعة الرضوان فاستوجبت سهام المقاتلين ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جلفا جافيا على مصر ، وأذن له فى المعازف والبرابط وشرب الخمر ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من ولى يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب يجبى المال الحرام ، ويسفك الدم الحرام . رويدك لو قد التفت عليك حلقتا البطان وطالت بى حياة ورد الله الحق الى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فطالما أخذتم بنيات الطريق وتركتم الحق وراءكم ظهريا ؛ ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبته بيع رقبتك ، فإن لكل مسلم فيك سهما فى كتاب الله . والسلام على من اتبع الهدى . ولا ينال سلام الله الظالمين !

محمد مصطفى شادى

باب الأسئلة والفتاوى

التصوير والصور

ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المحترم (حمزة يوسف أفندى ميجاج) ببلدة هرجيسة ـ الصومال البريطانى ـ استفتاء عن حكم الصورة، أحلال هى أم حرام؟

الجواب

جاء فى صحيح البخارى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون»، وأنه قال: «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، وأن ابن عباس رضى الله عنهما أتاه رجل فقال: إنى أصوّر هذه الصور فأفتنى فيها، فقال: ادن منى، فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل مصوِّر فى النار»، ثم قال: إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفْس فيه». الى غير ذلك مما صح فى النهى عن التصوير واتخاذ الصور من أحاديث كثيرة تكاد تبلغ حد الشهرة.

قال الجمهور من العلماء فى شرح هذه الأحاديث: إنما عظمت عقوبة المصور، لأن الصور كانت تعبد من دون الله، وكانت أصنام الجاهلية فى العرب تماثيل على صور الانسان؛ فتكون حكمة النهى عن التصوير راجعة الى الاحتياط فى سد أبواب الشرك، والمحافظة على عقيدة التوحيد، بتجنب كل ما قد يؤدى الى عبادة غير الله، ولو فى النادر القليل.

وقد أجمع الفقهاء — أخذاً من هذه الأحاديث — على حرمة تصوير الحيوان مجسما كاملا، لا نعلم لأحد فى ذلك خلافا؛ أما الصور غير الكاملة كالتماثيل النصفية التى لا تمثل إنسانا أو حيوانا يستطيع أن يعيش، فانها ليست من الصور المتوعَّد عليها بهذه العقوبة الشديدة، ومع ذلك فقد كرهها العلماء واستحسنوا تركها.

وقد استثنى بعض العلماء من الصور المحرمة، التماثيل الصغيرة التى يتخذها الأطفال لعبة لهم، استناداً لما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبى صلى الله عليه وسلم، وكان لى صواحب يلعبن معى». وفى فتح البارى: أخرج أبو عوانة وغيره عن عائشة قالت: «كنت ألعب بالبنات، وهن اللعب». وحكى القاضى عياض عن الجمهور أنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن.

وكذلك اتفق العلماء على إباحة تصوير الشجر وما لا نفس له، لما تقدم فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال الخطابى : « إنما فرقوا بين ما له روح وما ليس له روح ، لأن الأول من جنس ما كان يعبد من دون الله ، وأما ما ليس له روح فانه لم يعبد من دون الله » .

أما الصور غير المجسمة التى لا ظل لها : كالصور الفوتوغرافية ، والصور الزيتية ، والصور المنقوشة فى الثياب وعلى الجدران ، فهى فى مجال النظر عند الفقهاء ، فمنهم من حرمها ، ومنهم من أباحها . وتميل اللجنة الى الرأى الثانى عملا بما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم من استثناء الصور المرقومة فى الثياب من الصور المحرمة ، ولأنه لم ينقل أن أمة عبدت صورة مرقومة غير مجسدة .

هذا ، وإذا قيل : « إن المصورين الآن لا يقصدون من التصوير توجيه الناس الى عبادة الأوثان ، وإنما يقصدون من تماثيلهم أن تكون مظهرا من مظاهر الفنون الجميلة التى لا يأباها الدين ، وفى التماثيل فوق ذلك إحياء لذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم التى تكون مثار الاقتداء بهم والنسج على منوالهم ، وقد ارتقى العقل البشرى وصار من المستحيل أن يعتقد فى حجر منحوت باليد استحقاقه العبادة من دون الله ، فالعاقبة إذن مأمونة ، وعلة التحريم غير قائمة ، وحينئذ يكون التصوير الآن على اختلاف أنواعه مباحا لا تحريم فيه » .

إذا قيل ذلك ، فجوابه : أن توارث العقيدة بين الأبناء والآباء ، وتشبه الأمم بالأمم ، وتأثير البيئة على الانسان ، كل ذلك قد يطغى على العقل والتفكير ، ويبعد الانسان عن التفكير الصحيح ، والتمييز بين الحق والباطل ، فلا يصل الى الدين الحق ؛ وقد عبدت الأشخاص والأصنام والأرواح حتى فى أزهى العصور العلمية وأرقاها ، وفى العصور الناضرة من عصور الحضارة والارتقاء ، فى وقتنا الحاضر وفى غير وقتنا الحاضر ، فعلة التحريم قائمة .

وإذا كان الغرض من التصوير ، كما قيل ، إحياء ذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم ، وبعث النفوس الى الاقتداء بهم ، وكان هذا الباعث الشريف غاية الناس من هذا العمل ، فانه قد ينجم عنه بتطاول الزمن ما لا تحمد عقباه فى عقيدة التوحيد . فقد صح عن ابن عباس فى أوثان قوم نوح أنه قال : « كان ودٌّ وسُواعٌ ويغوثُ ويعوقُ ونسرٌ ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت » . أخرجه البخارى وغيره .

وإن الفنون الجميلة لا ينحصر مجالها فى التصوير الذى حرمه الاسلام محافظة على عقيدة التوحيد ، وسدا لعبادة الأحجار والأوثان ؛ وكذلك الأسوة بالعظماء لا تتوقف على نحت

تماثيل حجرية تقام فى الميادين وتمر عليها السنون والدهور ولا تكون منارا لشىء مما يرجع الى الأسوة والاقتداء ؛ وإن فى العمل الصالح وتدوين تاريخ العاملين والإشادة بذكرهم لأوضح مرشد لمن يريد الاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم .

إن تماثيل العظماء التى تقام فى الميادين تقتضى نفقات طائلة لو أنها أنفقت باسم هؤلاء العظماء فى أعمال البر والصدقات الجارية ، لكان ذلك أجدى وأنفع فى تخليد ذكراهم ، واستدرار رحمة الله عليهم فى دار الخلد وجنات النعيم .

والله الهادى الموفق الى سواء السبيل .

* * *

محاريب المساجد

وورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء عن المحاريب المجوفة فى المساجد ، أهى بدعة منكرة فى الدين ، أم هى أمر مستحسن يعين على معرفة جهة القبلة ؟

الجواب

إن التجويف الذى اتخذ علامة على القبلة فى المساجد وسماه الناس « محرابا » لا يعدو شأن أية علامة تتخذ للقبلة . وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخشبة علامة عليها ؛ ورأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اتخاذ هذا التجويف علامة على القبلة فى المسجد النبوى الشريف أيام كان واليا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، فى أواخر القرن الأول الهجرى ، ولم ينكر عليه أحد من علماء التابعين ، بل إنهم استحسنوه لأنه عام النفع فى جميع الأشخاص والأوقات ؛ وتتابع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على اتخاذه ليكون علامة على القبلة ؛ ولم ينقل أن أحداً من متقدمى العلماء اعتبر ذلك ابتداعا فى الدين ، أو إحداثا لما ليس منه .

إن الابتداع المنهى عنه لا يتناول مثل هذا التجويف ، لأنه لم يُتعبَّد به الله ، ولكنه جعل وسيلة لمعرفة القبلة التى جُعل التوجه اليها شرطا فى صحة الصلاة . وإنما يدخل الابتداع فيما يتعبد به : من إحداث عبادة مستقلة ، أو زيادة فى عبادة ، أو تغيير فى كيفية عبادة ، على أن يقصد التعبد بالمستحدث كما يتعبد بأصل المشروع . وهذا هو مايدل عليه حديث النهى عن الابتداع ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد » ، فإن الإحداث (فى الدين) لا يتناول إلا ما استحدث على أنه عبادة أو زيادة فى عبادة كما قلنا . أما وسائل العبادات فإن استحداثها لا يقال له إحداث (فى الدين) ، فلا يدخل فى حد الابتداع أصلا ؛ وذلك كنقل الأذان من باب المسجد الى سطحه ثم الى المنارة ، لا يعد ذلك ابتداعا ،

بل هو من الوسائل التى تحقق الغرض من الأذان فى أكمل معانيه ؛ وكذلك مدافع الإفطار والإمساك فى شهر رمضان ليست ابتداعا فى الدين ، مادام الغرض منها ضبط الوقت الذى ينتهى به الصوم ، والوقت الذى يبدأ فيه بالصوم ؛ وكذلك اتخاذ منبر للخطابة ذى درج مرتفع لغرض إسماع الناس فى المساجد الكبيرة ليس من الابتداع فى شىء ، وإن كان مخالفا لمنبر الرسول عليه الصلاة والسلام فى مادته وشكله وعدد درجاته .

فهذا أصل يجب أن يتحاكم إليه فى معرفة كون المحدث بدعة منهيا عنها أو ليس بدعة . وفى اعتقادنا أن التحاكم الى هذا الأصل يقرّب مسافة الخلف بين الطوائف الاسلامية فى كثير من الفروع التى يختلفون فى مشروعيتها وعدم مشروعيتها ، ويجعلهم ذوى دين واحد ، ووجهة واحدة ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

أما تعصب كل فريق لموروثه ، وعناده لما سواه ، فهذا شىء يأباه الدين ويمقته ، ويصور المسلمين بصورة أرباب الأديان المختلفة ، وبصورة الجاهلين بدينهم هذه الأجيال المتعاقبة .

ورب قائل يقول : كيف ترون اتخاذ المحاريب مباحا وليس بدعة ، وقد روى البيهقى فى سننه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا هذه المذابح » ، وفسرها البيهقى بالمحاريب ؟

وجوابه : أن هذا الحديث قد ضُعّف بعض رجاله . على أن النهى فيه موجه الى اتخاذ المسلمين مذابح فى مساجدهم كمذابح النصارى ؛ وقد صرح بذلك فى حديث موسى الجهنى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة بخير مالم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » . فالنهى لا يتناول التجويف الذى يسميه الناس الآن محرابا ، لأنه يخالف المذبح فى ذاته ، وشكله ، والغرض منه ، كما يعرف بالمقارنة بينهما .

وحاشا لعمر بن عبد العزيز ، الرجل الفقيه التقى الورع ، أن يعمد الى مسجد الرسول الكريم ومهبط الوحى الأمين ، فيحدث فيه مذبحا كمذابح النصارى فى كنائسهم ! وحاشا لعلماء المدينة أن يقروه على هذا المنكر الشنيع ! وحاشا لأئمة المذاهب المجتهدين من بعدهم أن يسكتوا على هذا الحدث العظيم ، بَلْهَ أن يعتمدوه فى مذاهبهم فيعتبروا محاريب المسلمين مرتبة مقدمة فى العلم بجهة القبلة على مرتبة الاجتهاد والتحرى !

نعم قد أطلق لفظ البدعة فى كثير من كتب الحديث والفقه على كل ما لم يكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وعلى هذا الإطلاق قسّم بعض الفقهاء البدعة الى بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . والغرض هو ما أشرنا إليه من أن ما استحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يرجع الى إحداث عبادة ، أو زيادة فى عبادة ، أو تغيير فى كيفية عبادة ، فهو بدعة سيئة ، لأنه يرجع الى التعبد بما لم يأذن به الله . أما إحداث أمور أخرى لم تكن على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن من هـذا القبيل ، بل كانت من قبيل الوسائل التى تساعد على أداء العبادة ، فهو بدعة حسنة ، وعلى هذا التوجيه يحمل ما ورد فى كتب الفقه من أن إحداث المحاريب بدعة :

وبعد : فإلى كل الطوائف والجماعات التى تحارب البدع وتحرص على خدمة الاسلام ونشر تعاليمه ، نوجه هذه النصيحة .

ياقوم ! دعوا هذه النوافه التى لا تفيد إلا أن تثير الفتنة ، وتزيد فى عوامل الفرقة بين المسلمين ، وتجعل بعضهم حربا على بعض .

دعوا المحاريب — وقصارى أمرها فى نظركم أنها فرع من الفروع الخلافية فى المذاهب الاسلامية — واعمدوا الى المنكرات المجمع على إنكارها ، وحاربوها بكل ما استطعتم من قوة ، وهنالك يحمد لكم المسلمون جهادكم ، ولا يضيع عند الله جزاؤكم .

وفقنا الله وإياكم لخدمة الاسلام والمسلمين ؟ رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

اتخاذ الاصدقاء

قال محمود الوراق الشاعر :

تكثر من الاخوان ما اسطعت إنهم عماد إذا استنجدتهم وظهور
فما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير

قيل لابن المقفع : أصديقك أحب إليك أم نسيبك ؟ فقال : إنما أحب النسيب إذا كان صديقا ، والصديق نسيب الروح .

وإلى هذا المعنى أشار شاعر فقال :

نسيبك من ناسبت بالود قلبه وجارك من صافيته لا المصاقب

المصاقب : المجاور ، من صقبت الدار أى قربت .

وقد بالغ بعض الأدباء فقال : الأخ الصالح خير لك من نفسك ، لأن النفس قد تأمر بسوء ، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير .

وقال المأمون : الاخوان ثلاثة : أخ كالغذاء يحتاج اليه فى كل وقت ، وأخ كالدواء يحتاج اليه أحيانا ، وأخ كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

وقال عمر بن الخطاب : احذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله

الكلام والمتكلمون

— ٣ —

المعـــــتزلة

تتمة الحديث عن مدارسهم :

وفى أصفهان أنشأ أبو بكر محمد بن ابراهيم الزبيرى ، وهو من أنصار أبى الهذيل ، دعاية للاعتزال ؛ وقد توفى فى القرن الرابع .

وفى القرن الرابع نشأت دعايات لمختلف المذاهب الاعتزالية فى مدن : قرميسين ، وجرجان ، ونيسابور ، وغيرها . وكل هذه المذاهب تعتبر فروعا للمدرسة البغدادية العامة . وفى القرن الخامس بدأت المذاهب الاعتزالية تندمج فى الزيدية . ويعتبر الزمخشرى المتوفى فى سنة ٥٣٨ هـ — سنة ١١٤٣ م أشهر زعماء متأخرى المعتزلة فى القرنين : الخامس والسادس ، ولكن اندماج هذه المذاهب فى الزيدية لم يقض عليها ، بل ظلت حية الى عهد الاجتياح المغولى .

وفى مصر كان إبراهيم بن إسماعيل الملقب بابن علية ، الذى رأيناه فى البصرة خصما لمدرسة العلاف ، والمتوفى فى سنة ٢١٨ هـ — سنة ٨٣٣ م ، أول المعتزلة ، إذ أسس مدرسته فى أوائل القرن الثالث ، وتبعه فيها حفص الفرد ، الذى ظل ممثلا للآراء الدينية الرسمية فى الدولة طول مدة محنة الواثق ، غير أن الخياط أعلن فسوقه وخروجه على الشريعة .

وفى الأندلس كان أبو بكر فرج القرطبى أول من نشر المبادئ الاعتزالية ، وذلك بعد أن ارتحل الى الشرق وتلقى العلم على الجاحظ . وإذاً ، فالمبادئ التى أذاعها فى الأندلس هى المبادئ الجاحظية ، أو بعبارة أدق : النظامية محوّرة بعض الشيء ، ولكن هذه المبادئ لم تلبث أن امتزجت فى تلك الأصقاع بالباطنية ، وخالطتها عناصر أجنبية خطيرة لم تخطر لأصحابها الأولين ببال (١) .

لمحة عن أشهر زعماء المعتزلة

واصل بن عطاء :

هو أبو حذيفة الغزّال واصل بن عطاء ؛ وقد ولد فى المدينة فى سنة ٨٠ هـ — سنة ٦٩٩ م ،

(١) انظر صفحة ٨٤١ وما بعدها من المجلد الثالث من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

وكان من موالى بنى مخزوم أو بنى ضبة ثم أعتق . وعلى أثر تحرره سافر الى البصرة فالتحق بمدرسة الحسن البصرى ، وإذ ذاك اتصل بجهم بن صفوان ، وبشار بن برد الذى كان كثيرا ما يسخر من طول عنقه ، فيقول : إن واصلا يحمل رأسه فوق عنق زرافة . ولكن صلته بهؤلاء الرجال الثلاثة لم تلبث أن فترت ثم انقطعت .

كان واصل حسن الخلق ، نزيها محسنا ، حتى إنه ـ لفرط إحسانه على الغزّالات الفقيرات ـ لقب بالغزّال . وكان زاهدا فى المال فلا يتقاضى منه إلا ما هو من حقه ؛ وكان فصيحا قادرا على امتلاك ناصية الكلام الى حد أنه — للثغه فى حرف الراء — قد استطاع أن يتجنب هذا الحرف فى خطبه ودروسه ، بل فى محادثاته العادية ؛ وقد كان تلميذا للحسن البصرى الى أن وقع بينهما الخلاف فى مسألة « المنزلة بين المنزلتين » فافترقا كما أسلفنا . وأخيرا توفى فى سنة مائة وإحدى وثلاثين للهجرة — سبعمائة وثمان وأربعين ميلادية .

ويعتبر واصل المؤسس الأول لفرق المعتزلة ، وإن كان معبد الجهنى ، وعطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى وأنصارهم قد سبقوه الى مبدأ حرية الفرد . كان السبب الذى تذرع واصل بأنه هو الذى دفعه الى الاعتزال ، هو تنزيه الإله عن جميع شوائب الظلم والعجز والتعدد .

فلكى ينفى شائبة الظلم قال بقدرة الفرد على جميع أفعاله ، لتتحدد مسئوليته ، فتتحقق العدالة بعقابه وثوابه .

ولكى ينفى شائبة العجز عن الإله قال بأنه قدر الشرور المادية كالأمراض والآلام والموت ، ولكنه لم يقدر الشرور الأخلاقية ، لأنه فى الحالة الأخيرة يكون قد قدر ما يكرهه ، ولا يفعل ذلك إلا العاجز .

ولكى ينفى شائبة التعدد ، قال بنفى جميع الصفات ، لأن ثبوتها يتنافى مع الوحدانية ، كما سنبسط ذلك حين نتناول المذهب العام للمعتزلة .

لم تكن مدرسة واصل أولى مدارس المعتزلة فحسب ، بل كانت أهم المدارس التى ظهرت فى عصر ماقبل الترجمة على الإطلاق ؛ وقد ظلت مستمتعة بالحياة والأنصار الى أن خفتت حركة الاعتزال فى عهد المدرسة الأشعرية .

عمرو بن عبيد :

هو أبوعثمان عمرو بن عبيد بن رباب ، وهو مولى بنى تميم ، وكان جده رباب من سبى كابل من رجال السند ، ولايعرف تاريخ مولده بالضبط ، وإنما كل ماعرف من هذا التاريخ هو أنه كان معاصرا لواصل بن عطاء ، وأنه توفى فى سنة ١٤٤ هـ ، وأنه كان بعد وفاة واصل شيخا للمعتزلة ، وأن له خطبا ورسائل لها قيمتها ، وأنه قد بلغ من الصراحة والنزاهة وعزة النفس والنبل حدا لا يكاد يوجد لدى معاصريه جميعا . ومن دلائل ذلك أنه مثل يوما بين يدى أبى جعفر المنصور ،

فقال له الخليفة : عظني ، فوعظه ، فأمر له بعشرة آلاف ، فقال : لا حاجة لى فيها . فقال أبو جعفر : والله لتأخذنها ! قال : لا ، والله لا آخذها ! وكان المهدى حاضرا فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟! فالتفت عمرو الى أبى جعفر فقال : من هـذا الفتى ؟ قال : هـذا محمد ابنى ، وهو المهدى ، وهو ولى عهدى . قال : أما والله لقد ألبسته لباسا ماهو من لباس الأبرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمنع ما يـكون عنه ! ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يابن أخى ، إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على الـكفارات من عمك ! فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهى ؟ قال : ألا تبعث الى حتى آتيك . قال : إذاً لا نلتقى . قال : هى حاجتى ! فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ثم قال :

« كلـكم يمشى رويد * كلـكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد » !

وقد دخل على المنصور بعد ما بايع للمهدى فقال له : عظنى يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى فى يدك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحـذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده !

أما مذهبه ، فهو يشبه مذهب واصل فى النظريات الفلسفية ، ولا يختلف عنه إلا فى مبدئه السياسى الذى يقضى بتفسيق الفريقين المتحاربين من المسلمين .

أبو هذيل العلاّف :

هو محمد بن الهذيل العبدى العلاف ، ولد فى البصرة فى سنة ١٣٥ هـ — سنة ٧٥٢ م ، وكان من موالى بنى عبد القيس . ولما شبّ تلقى العلم فى بغداد على عثمان بن خالد الطويل أحد تلاميذ واصل بن عطاء ، وكان فى زمانه شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها ؛ وكان من أشهر أهل زمانه فى القـدرة على الجدل . وقد حدثنا المؤرخون أنه لم يكد يستقر فى بغداد حتى بلغت شهرته مسمع المأمون ، فقربه من مجلسه ، وجعل يثير بينه وبين خصومه وأنصاره مناظرات علمية جدية ، وكذلك طالما كان الجدل يشتعل بينه وبين هشام بن الحـكم زعيم الروافض فى ذلك الحين . وقـد اعتبر العلماء أبا الهـذيل أول منشىء الاعتزال الفلسفى المؤسس على الاطلاع الواسع . وأخيرا توفى أبو الهـذيل فى سـنة ٢٢٦ هـ — سنة ٨٤٠ م ، أو فى سنة ٢٣٥ هـ — سنة ٨٤٩ م أى عن إحدى وتسعين سنة فيما يرى الأول ، ومائة سنة فيما يرى الثانى . وقد رجح الأستاذ كارادى فو فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية الرأى الأول .

كتب أبو الهذيل كثيرا من المؤلفات ، ولـكنها فقـدت جميعها . وكل ما وصل إلينا من آرائه هو نقول عن تلاميذه وخصومه وعن المؤرخين المحايدين .

غير أن ما وصل إلينا من هذه الآراء يدلنا دلالة واضحة على أن المترجمات الاغريقية كانت

قد بدأت تعمل عملها فى البيئات العربية ، إذ لا يكاد الباحث يتأمل فى آراء أبى الهذيل حتى يتبين له أنها قد غذيت بعناصر جديدة لا عهد للقدماء بها ، فهو مثلا لم يعتنق الرأى القديم القائل بنفى الصفات بتاتا ، بل قال بأن البارى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقـدرة ، وقدرته ذاته ، وهلم جرا . وقد تأثر فى هذا الرأى بقول الفلاسفة : إن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته ، وترجع الى السلوب أو اللوازم .

وقد علق الشهرستانى على هذا الرأى بقوله : « والفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم ، هو ذاته ، أن الأول نفى الصفة ، والثانى إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هى بعينها ذات . وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهى بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبى هاشم (١) » .

وهذه الصلة التى يعقدها الشهرستانى بين وجوه أبى الهذيل وأحوال أبى هاشم ، وبين أقانيم المسيحيين ، لها وجاهتها فيما أرى ، على الرغم من أن الأستاذ كارادى فو يقول : إنه لا يرتضى هذا التشبيه . ولو أنه علل نقده للشهرستانى لناقشناه فيه ، ولـكنه قد ساقه على عواهنه . أما نحن فبرهاننا على صحة التشبيه ما أثبتناه حين عرضنا لدرس الفلسفة المسيحية من أوصاف للأقانيم تشبه كثيرا وجوه أبى الهذيل وأحوال أبى هاشم ، فليرجع اليها الباحث فى مواضعها .

ومن أبرز آرائه التى تأثر فيها بالفلسفة الإغريقية قوله : إنى لا أقول بحركة لا أول لها ولا آخر ، ولـكنى أقول بسابقية السكون على الحركة وتلوه إياها ، وبأن بدء الخلق هو بدء هذه الحركة ، ونهايته نهايتها . وهـذا تصوير من بعض الوجوه للنظرية الاغريقية التى ترجع الى الحركة إبراز كوامن الهيولى الأزلية وتسييرها من القوة الى الفعل ، وتوليد المشخصات المختبئة فى المتحركات ، وإنما نقول : من بعض الوجوه ، لأن النظرية الأغريقية تصرح بأزلية الحركة وأبديتها على عكس رأى أبى الهذيل .

ومن هـذه الآراء أيضا تقسيمه الـكلام الإلهى الى قسمين : الأول لا فى محل ، وهو ما يتعلق بالخلق والإيجاد ، فان قول البارى : ليكن كذا ، ليس فى محل ، لعدم وجود المحل إذ ذاك . والقسم الثانى فى محل ، وهو ما يتعلق بالأمر والنهى .

ومنها كذلك قوله : بأن المقتول لا يموت بأجله ، وإنما قبله . وقوله : بأن العقلاء من أهل الفترة غير ناجين ، لأن العقل السليم هو وحده مناط التـكليف .

هذا ، وله نظريات أخرى غير ماذكرنا ، ولـكننا نكتفى بهذا القدر ؟

(١) انظر صفحة ٥٦ جزء أول من الشهرستانى .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

تاريخ الفقه الاسلامى
فى مصر

تمهيد :

لا شك أن اللغة العربية قد دخلت ، بإشراق شمس الاسلام ، فى عهد جديد كله خير وبركة .

ولا شك أن الفكر الانسانى ، والعقل العلمى ، قد وجدا فى الاسلام غذاء جيدا لا يفنى ، ومادة غزيرة لا تنفد .

فأما اللغة العربية ، فقدنزل بها القرآن الكريم ، فسمت بسموه ، وخلدت بخلوده ، وترقت ألفاظها وعباراتها بمحاكاة البلغاء إياه ، واقتباسهم منه ، وزال ما كان بها من جفوة وغلظة ، فأصبحت بيضاء نقية ، لا لبس فيها ولا إبهام ، ولا عيب مما يعترى الكلام .

ثم رفهت بما أحدثه القرآن والحديث فيها من علوم وفنون ، وانتشرت بانتشارها فيما فتح الله على المسلمين من أمصار ، واستعلت على سائر اللغات فى مواطنها ، وأصبحت لغة قوم ذوى عز وسيادة ، ومدنية وملك ، كما أصبحت لغة علوم وفنون ، وتدوين وتصنيف .

وأما الأفكار والعقول ، فقد وجدت فى الاسلام دينا رحب الصدر ، واسع الاحتمال ، لا يهاب العقل ، ولا يصادم العلم .

وضعت قواعد الاسلام وقضاياه من أول يوم بين يدى العقل ، وطرحت على بساط العلم والبحث ، فجعلت تفحصها العقول ، وتصهرها مراجل العلوم ، وتبلوها التجارب ، وهى ترفع رأسها رويدارويدا فى ثقة وإيمان ، لا تخشى أن تخفضه الأيام وفى الناس عقول ، وفى الدنيا إنصاف .

ثم ظلت فوق ذروتها العليا ، تحدجها الأبصار حينا ، وتكل عنها حينا ، وهى فى كل حال ينبعث منها نور الحق ، وينبثق منها شعاع الهدى .

ومرت عصور ، وتوالت دول ، وتولت ملوك ، وأقيمت نظم ثم بدلت ، واشتجر صراع عنيف بين العلوم ، والأديان ، واللغات . فماذا كان حظ الاسلام فى لغته وعلومه ، من هذا الصراع العنيف ؟ وبماذا خرج من هذه المعارك المختلفة الألوان والأغراض ؟

إنه خرج منها منتصرا مرفوع الرأس ، يحمل بإحدى يديه عقيدته سليمة طاهرة ، نقية صافية ، ويحمل بالأخرى علومه ولغته وتاريخه !

لو أن أحدا مثل له تاريخ الاسلام العلمى ، فوقف بحيث يستعرضه ، وتمر عليه جيوشه ، وتجرى أمامه كتائبه ، لرأى ما يملأ النفس روعة وجلالا ، وما يعمر القلب يقينا وإيمانا .

فهذه كنوز ثمينة ، فى التأليف والتصنيف ، ورثناها عن آبائنا وجدودنا .

كنوز فى اللغة : متونها ، وآدابها ، وشعرها ، ونثرها ، ونحوها وصرفها ، واشتقاقها ، ومعانيها ، وبيانها ، وبديعها ، وسائر فنونها .

وكنوز فى علوم القرآن : تفسيره وتأويله ، ومجازه ، وأسباب نزوله ، وطرق الاستنباط منه ، وهدايته ، ومبادئه فى الإصلاح وبناء الأمم ، وأسلوبه فى التربية والتشريع .

أسرار لا تحصى ، للفقيه فيها نظر ، وللأديب نظر ، وللغوى نظر ، ولصاحب النحو نظر .

وفى دائرتها يعمل المصلح ، والمربى ، والمرشد ، ورجل الدين ، ورجل القانون .

وكنوز فى علوم السنة : من رواية ودراية ، وتجريح وتعديل ، وناسخ ومنسوخ ، ومذاهب فقه ، وأصول أحكام ، وتاريخ رجال . وغير ذلك من علوم وفنون .

هذه صفحة من تاريخ الاسلام العلمى ، كتبها أبطاله الأولون ، وسار على سنتهم أبناؤهم وأحفادهم ، الى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وهذه قافلة العلم مازالت تسير ، لا تقف عند حد ، ولا تعرف الركود ولا الجمود .

ونحن — أبناء هذا العصر — من حقنا ، بل من واجبنا أن نسير فى هذا الركب كما سار الذين من قبلنا ، وأن يضع كل منا لَبِنة فى هذا البناء الشامخ الذى شيده آباؤنا .

ومن الخير أن يعمِد القادرون منا الى استكشاف النواحى التى مازال بها شىء من الغموض ، وارتياد المواطن التى تحتاج الى التمهيد والتعبيد ، فقد طال ما جرينا فى السهل ، وتخلينا عن الوعر ، وكثيرما آثرنا المنال القريب ، على المنال البعيد ! !

إن العلم لا يعرف الترفه ولا التنعم ، وإنما يسلس جامحه ، وينال صعبه ، بالتقشف والتخشن .

وإنى أضرب لهذا مثلا قريبا حاضرا : لماذا لم يعن أحد من المؤلفين أو الكتاب فى عصرنا الحاضر العناية الواجبة بتاريخ الحركات العلمية واللغوية والأدبية فى مصر خاصة ؟

إننا إذا أردنا أن نقف على تاريخ هذه الحركات فى مصر ، اضطررنا الى الرحلة الى بلاد غير البلاد ، لا أقصد الرحلة الحقيقية التى هى سفر واغتراب ، وإنما أريد الرحلة الى الكتب العامة ، التى لم تتقيد ببلد دون بلد ، وإنما تتحدث عن الآداب والعلوم فى البلاد جميعا بوجه عام .

فقلما تجد كتابا يجمع بين دفتيه الحديث عن الأدب المصرى قديمه وحديثه ، ويخصص أبوابه وفصوله لهذا الموضوع تخصيصا . فإذا أردت أن تقف على هذه الناحية فإنك لابد راحل

الى الـكتب العامة ، التى تسوق الحديث عن الأدب مختلطا من غير تمييز ، فتجمع أدب الحجاز الى أدب الشام ، الى أدب العراق ، وربما عرجت على الأدب المصرى فمسته مسا رقيقا رفيقا ، لا أثر فيه لدراسة أو تمحيص ، ولا لتعمق أو استيعاب ، عندئذ ترى جملا متفرقة ، ونتفا مبعثرة ، لا تقوم بها شخصية مستقلة ، ولا تتألف منها صورة واضحة ! وتكون النتيجة أنك تعود من هذه الرحلة كما بدأت ، خالى اليدين مما أردت ! !

وقل مثل هـذا عن النحو والنحاة ، فلا شك أنه كان لمصر نحو ، كما كان لها أدب ؛ ولا شك أنه كان فى مصر نحاة ، كما كان فيها أدباء وشعراء ؛ ولا شك أنه كان لهؤلاء النحاة طرق تتفق أحيانا مع طرق غيرهم ، وتختلف أحيانا ، وأن هذا الاختلاف تارة يكون يسيرا هادئا ، وتارة يكون عنيفا شديدا ، ولـكن ، هـل تستطيع أن ترسم للنحو صورة مصرية واضحة ؟ وهل تستطيع أن تجمع من النحاة المصريين هيئة مستقلة متميزة ؟

لا ! وأنت مضطر أيضا الى الرحلة الى كتب النحو العامة ، لتقرأ ، من حيث يحـلو لك أو لا يحلو ، الأحاديث الطوال عن نحو البصرة ، ونحو الـكوفة ، ونحاة البصرة ، ونحاة الـكوفة.

فاذا عثرت على شىء من الحـديث عن المصريين ، ونحو المصريين ، وجدته مجملا مقتضبا مشتتا ، وحينئذ تعود مسرعا من حيث أتيت ، خالى اليدين مما أردت !

وتعال معى الى الفقه ، وتاريخ الفقه ، أو كما يقولون عنه « تاريخ التشريع » : أكان فى مصر فقهاء ؟ أكان لهم فقه ؟ أكان لهم رواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ما لون هذا الفقه فى عصوره المختلفة من عهد الفتح الى اليوم ؟ وما هذه الرواية ؟ وما مدى انتفاعهم بها ؟

ارجع الى الـكتب المؤلفة فى « تاريخ الفقه » . ارجع الى الـكتب التى تتحدث عن أصول الفقـه ، وتذكر الأسس التى بنى عليها الأئمة والفقهاء مذاهبهم . ارجع الى كتب التاريخ العـام ، ارجع الى كتب المذاهب المختلفة التى تتحدث عن فقه أصحابها وتجمع رأى الحجازى والعراقى والشامى والمصرى والمغربى ، لا تفرق بين أحـد منهم ، ولا تعنى بتبيين وجهات أنظارهم .

ارجع الى ذلك كله ، وارحل اليه ، ولتطل رحلتك كما تحب أن تطول ، ثم حدثنى : هل عدت فى هذه المرة من رحلتك مملوء اليدين ؟ وهل استطعت أن ترى للفقه المصرى صورة واضحة ، وأن تتبين ملامح هذه الصورة ثابتة غير مهتزة ولا متأرجحة ؟ وهل استطعت أن تحلق بفكرك فى جو من الفقه الاسلامى له طابع مصر ، وفيه روح مصر ؟ وهل استطعت أن تصل روحك بروح فقيه مصرى خالص أو غير خالص ، لتهتدى الى نفسه وعقله ، وثقافته ، وطريقة تفكيره ؟ لا بد من « لا » .

هذه نواحى نقص من غير شك ، ولكننا مع ذلك نصرف النظر عنها ، وترى مؤلفنا أو كاتبنا يفر منها فرارا ، لأنه يؤثر الراحة ، والطمأنينة ، ويكره أن يقلق راحته بحث عميق ، ويعكر صفوه نظر دقيق ، ويرى أنه لا بأس عليه إذا ترك الورد لما حوله من أشواك !!

يجب أن يتقدم أصحاب الأدب لتلافى هـذا النقص من الناحية الأدبية ، فيقوم منهم من يؤرخ أدبنا المصرى العـربى ، ويحرص على أن يعطى قراءه فـكرة واضحة عنه ، وعن أدبائه وشعرائه ، وعن عهود انحطاطه وارتقائه .

يجب أن يكون لنـا شأن غير هذا الشأن ، وأن تـكون لنـا همة أعلى من هذه الهمة .

ويجب أن يتقـدم المشتغلون بالنحو بمثل ذلك فى ناحيتهم ، فيدرسوا النحو المصرى العربى ويؤرخوا رجاله ، ويدلوا على ما عسى أن يكون لهم من آثار علمية أو عملية فى هـذا العلم العظيم .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بتاريخ الفقه غير هيابين ولا وجلين ، فيزاملوا الفقه الإسلامى من عهد الفتح الى اليـوم ، ويبينوا كيف كان شأنه فى مصر ، ويعطوا صورة عمن اشتركوا فى فتح البلاد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمن جاء بعدهم من التابعين والفقهاء ، وماذا كان نصيب مصر من المذاهب الفقهية ، وما شأن القضاء فيها ، وهل كان لها فقه (فى حدود الشريعة) يمتاز عن فقه غيرها من الأمصار؟ والى أى مدى كانت تتأثر بفقه الحجاز والعراق مثلا ؟ والى أى مدى كانت تأخذ بالرأى أو تعمل بالحديث ؟

عليهم أن يتنقلوا مع هذا التاريخ مرحلة بعـد مرحلة حتى تنتهى بهم الرحلة الى عصرنا ، وينظروا فيما عليه اليوم فقهنا .

هذا اقتراح أعرضه على الأدباء والعلماء راجيا أن يصادف منهم قبولا .

ولعلنا بذلك نخدم التاريخ العلمى لمصر ، كما خدم تاريخها السياسى قديما وحديثا .

وإنى أتقدم للمساهمة فى هذا العمل ، وآخذ على عاتقى نصيبا من عبئه ، وأرجو أن يوفقنى الله الى الحديث عن « تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر » فى مقالات متتابعة ، ابتداء من العدد القادم ، وبالله أستعين ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

الورع والمال

ترك عبد الله بن المبارك دنانير وقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجمعها إلا لأصون بها حسبى ودينى .

وقال ابن عيينة : من كان له مال فليصلحه ، فإنـكم فى زمان من احتاج فيه الى الناس كان أول ما يبذله دينه .

في عالم الأدب العربي

نظرات في الادب العربي

جاهليّه وإسلاميّه

— ٢ —

جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى

ظهر هذا البحث فى الربيع الماضى ، ونشرت لنا مجلة الرسالة فيه كلمة ، تحت عنوان : « بين جناية الأدب الجاهلى والجناية عليه » كانت على هامش الموضوع ، ولم تكن فى صميمه ؛ ولا يخامرنى ريب فى أنها كانت واضحة أو قريبة من الوضوح ، فى معناها المراد ، بدرجة تغنينى عن الشرح والتوجيه .

ومُثير هذا البحث ، رجل قوىّ الخلق ، متين الدين ، معروف التاريخ ؛ يحميه سياج من تربيته ، وعقله ، واتزانه ، أن ينفذ الشك الى نيّته ، أو يستراب فى نبل الغاية التى رمى إليها . ولعل من الخير أن أشير هنا ، الى أنه ليس أخطر على آرائنا — معاشر الأزهريين — من أن ننزع فيها عن قوس عاطفتنا الحادّة ، التى ركّبتها فى طبيعتنا تلك البيئة الدينية الغالية ، التى لا يمكن حمل فضلها على الناس ؛ فليس أكمل لرجل الدين من سعة الصدر ، واصطناع الأناة ، وتقليب الرأى على وجوهه ، قبل إصدار الحكم فيه . وإن خيرا للدين ألف مرة ومرة ، أن أجمّع عليه البر والمسىء ، من أن أفرق عنه كل من قصّر به عمله عن أن يكون من كبار الصالحين ؛ ومن يدرى ؟ فقد يكون لمن أذوده عن الدين باسم الدين ، وجهة نظر هى أشبه بحقيقة الدين من وجهة نظرى ؛ وبخاصة من تربّى تربيتى ، وتكمّل بما حرمتنى الأقدار بعضه أو كله . أنا رجل رجعى ، يعرف خلطائى جميعا ، أننى أرى الدين والأزهر بخير ، ما بقيت فينا طائفة تمثل الجمود الدينى بأتمّ معانيه ، حتى تردّنا الى الحد الوسط ، أمام طغيان الحضارة الغربية الفاتنة الرهيب ، ولكننى أريدها لحفظ التوازن ، لا للحرمان ؛ ونحن فى طور انتقال .

لم يكن لهذا البحث من خطر الشأن ، بعضُ ما كان لبحث « الشعر الجاهلى » ، ولعله كان يمرّ على القراء فى عناية معتادة أو فوق المعتادة بقليل ، لو لم تتح به فرصةٌ لخصم مُصاول ،

اهتبالها ، فثمَّرها فيما أجدى على شيوع البحث من جهة ، وعلى إظهار براعته هو فى تشقيق الكلام ، وبصره بفنون الأدب ، وقدرته على الاستطراد ، من جهة أخرى . ومردّ الفرق بين البحثين ، الى أن هذا البحث لا اتصال له بالدين إلا من ناحية غير مقصودة ، كما ستعرف ؛ ثم الى فرق ما بين الباحثَين ؛ فهذا باحث تغلب عليه النزعة العلمية ، وذاك باحث أديب ؛ والموضوع من موضوعات الأدب ، يقوّمه الذوق الأدبى ، أكثر بكثير مما يقوّمه النظر العلمى . ومن ذا الذى يريد الشعراء على أن يَنْزلوا على حُكم العقل والواجب غير العلماء ؟ ! فأمّا الأدباء ، فانهم أرقّ أكبادا من أن يَحْرِموا الشعراء حرية التحليق فى آفاق الخيال . وأكبر الظنّ أنّ صاحب هذا البحث قد أراد به رياضة نفسه بحملها على ما تأبى ، ورياضة قلمه باجرائه فيما يعارض هواه ؛ أو أنه — وقد جدّد فى زيّه — ظن أنه يستطيع كذلك أن يجدّد فى آرائه ، فأبت عليه الخِلْقة الأزهرية المحافظة ، التى تبدو من خَلَل حُلّته الفرَنجيّة ، أن ينال كبيرَ حظ من النجاح ؛ وقديما قيل :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

ترجع اهمية الشعر الجاهلى فى نظر كل عربى بخاصّة ، وفى نظر كل مسلم بعامّة ، الى أمرين أساسيين ؛ فأما أحدها ، فهو ما أشار إليه صاحب ضحى الإسلام نفسه ج ١ ص ٣١١ بقوله :

« ووردت فى القرآن والحديث ألفاظ لغوية ، فضربوا أكباد الإبل الى البادية ، يستفسرون عن لفظ ، أو يقفون على تعبير ؛ ودعاهم ذلك الى حفظ الأشعار ، ففيها أحيانا ما يفسر لفظا قرآنيا ، أو يساعد على فهم تعبير قرآنى . فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك ، ودققوا فيها ، وتحرّوا الموضوع من الصحيح ؛ وما كان يبذل هذا الجهد ، وذلك التحرى ، لولا ما وراءه من باعث دينى » . اه بنصه . وعلق عليه فى هامش الصفحة نفسها بقوله :

« قال الثعالبى فى أول كتابه فقه اللغة : « أما بعد ، فإن مَنْ أحبّ الله أحب رسوله المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، ومن أحبّ النبى العربى أحبّ العرب ؛ ومن أحب العرب ، أحبّ اللغة العربية ، التى بها أنزل أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ؛ ومن أحب العربية ، عُنى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها » . ويقول : « والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبالُ على تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين . الخ » .

« وقال ابن عباس : « الشعر ديوان العرب ، فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه » . وسئل عن قوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال عِزِين » قال : عزين : الحَلَقَ الرقاق ، قال عبيد بن الأبرص :

فجاءوا يهرعون إليه حتى   يكونوا حول منبره عزينا

انظر الاتقان : ١ — ١٤٩ وما بعدها » . اه بنصه من ضحى الاسلام .

ومما يتصل بقول الثعالبي : « والعربية خير اللغات والألسنة » ما ذكره صاحب المثل السائر ، قال : « وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذ ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد ، لمكان علمه فى دينهم وغيره ؛ وكان - لعمرى - كذلك ؛ فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعا ، فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخرا ، فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؛ ثم إن واضعها تصرف فى جميع اللغات السالفة ، فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ؛ فمن ذلك اسم « الجمل » فانه عندنا فى اللسان العبرانى : كوميل ، ثمالاً ، على وزن فوعيل ، فجاء واضع اللغة العربيـة ، وحذف منها الثقيل المُسْتَبشَع ، وقال : جمل ، فصار خفيفا حسنا . وكذلك فعل فى كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة . ولقد صدق فى الذى ذكره ، وهو كلامُ عالم به » اه بنصه ص ٧٣ المطبعة البهية .

ومن هـذا الذى ذكره صاحب الضحى ، ومما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن الثعالبى ، يظهر السبب فى شدة الرشيد على الحسن بن هانئ لما خرج على سنة شعراء العرب ، ونعى عليهم افتتاح القصائد بوصف الطلول ، والوقوف بالديار ، والتألم للفراق ، والحنين الى اللقاء ، الخ . واستبدل بذلك فى كثير من مطالع قصائده وصف الخمر ؛ فسجنه الرشيد ، وبالغ فى تهديده ؛ وزاد من حَنَقه عليه استهانته بالعرب : عدنانيّهم ، وقحطانيّهم ؛ فقد هجا عدنان ، وافتخر بقحطان ، بقصيدته التى مطلعها :

ليستْ بدارٍ عفتْ وغيّرها ... ضربانِ من قَطْرها وحاصِبها

وفيها يقول :

فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها

واهجُ نِزارا وأفرِ جِلدتَها ... وهتّك السِّتْر عن مثالبها

ثم عاد فهجا اليمن فى قصائد كثيرة ؛ منها قصيدته التى يقول فيها :

لِأزدِ عُمانٍ بالمهلب نَزْوة ... إذا افتخر الأقوام ، ثم تَلين

وبَكر ترى أن النبوة أنزلت ... على مِسمع فى الرَّحْم وهو جَنين (١)

وقالت تميم : لا نرى أن واحدا ... كأحنفنا — حتى المات — يكون (٢)

فما لِمتُ قيسا بعدها فى قتيبة ... وفخرٍ به ، إن الفخار فنون (٣)

(١) مسمع ، كمنبر : أبو قبيلة من ربيعة ، وآل مسمع : بيت بكر بن وائل فى الاسلام . (٢) الا حنف بن قيس التميمى الذى يضرب به المثل فى الحلم . (٣) هو قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، القائد الاسلامى العظيم ، يقال إنه فتح سبع مدن فى خراسان ، فيها سبعة حصون ، لم يصل اليها أحد قبله .

وقد أرغم أبو نواس على العودة الى وصف الطلول ، فعاد فى خيث ، وذلك حيث يقول :

أعِرْ شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا
دعانى الى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا — أمير المؤمنين — وطاعة ... وإن كنت قد كلفتنى مركبا وعرا

وكذلك فعل الرشيد مع الفضل بن يحيى ، حين أنكر على الأصمعى إمعانه فى وصف الجمل من قصيدة للعجّاج ، ليلة سمره مع الرشيد ، إذ قال الفضل للأصمعى : « مالك تضيّق علينا كل ما اتسع من مشاهدة السمر فى ليلتنا هذه ، بذكر جمل أجرب ؟ ! فقال الرشيد : « اسكت ، هى التى أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبتك تاج ملكك ؛ ثم ماتت ، فعُملت جلودها سياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد . ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع نفسك والتعرض لما تكره » ! فقال الفضل : « لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله » ! قال الرشيد : « أخطأت فى كلامك ، يرحمك الله ! لو قلت : وأستعين الله ، قلت صوابا ؛ إنما يحمد الله على النعم » .

ولما نهض تبادر الخدم فأمسكوا بيده ، حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النعل ، فجعل الخادم يسوى عقب النعل فى رجله ، فقال : ارفق ، ويحك ، حسبك ، قد عقرتنى . قال الفضل : لله در العجم ! ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سِنْدية ، ما احتجت الى هذه الكلفة . قال الرشيد : هذه نعلى ، ونعل آبائى ، رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك . لا تزال تعارضنى فى الشىء ، ولا أدعك بدون جواب يمضّك ! ! ! « العقد الفريد لابن عبد ربه »

وعلى صلة بهذا ، قول يزيد المهلبى ، يعيب على بنى العباس تقريب الموالى وإبعاد العرب ، من مرثيه له فى الخليفة المتوكل على الله ، قتيل الأتراك :

لمّا اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ... ضِعتم ، وضيعتم من كان يُعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المنسوبة الحُشُد
قوم هم الجِذم ، والأنساب تجمعهم ... والمجد ، والدين ، والأرحام ، والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم ... بغير قحطان ، لم يبرح به أود
أضحى شهيد بنى العباس موعظة ... لكل ذى عزة ، فى رأسه صَيَد

***

وأما الآخر ، فهو توقف تعلم صناعة الشعر على رواية الأدب الجاهلى وحفظه ؛ فقد اتفق أهل البصر بالشعر ، على أن من قل حفظه أو عُدِم ، لا يكون له شعر ؛ وإذا جاء بشىء منه ، كان نظما ساقطا ، لا قيمة له عند أهل الصناعة ؛ وفى درجته ما كان من جنسه ، كأشعار العصرين : الاسلامى والعباسى ؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه ، وكثرته وقلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . قال العلامة ابن خلدون :

« اعلم أن الأساليب عنـدهم عبارة عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ؛ ولا يرجع الى الـكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغـة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة ، كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيّرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان ، فيرصّها فيه رصّا ، كما يفعل البنـاء فى القالب ، أو النساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الـكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملـكة اللسان العربى فيه ؛ فان لـكل فن من الـكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ؛ فسؤال الطلول فى الشعر ، يكون بخطاب الطلول ، كقوله : يادارمية بالعلياء فالسند ؛ ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال ، كقوله : قفا نسأل الدار التى خف أهلها ؛ أو باستبكاء الصحب على الطلل ، كقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ؛ أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين ، كقوله : ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟ ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها ، كقوله : حى الطلول بجانب الـعزل ؛ أو بالدعاء لها بالسُّقيا ، كقوله :

أسقى طـلولهمو أجش هـزيم وغـدت عليهـم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق ، كقوله :

يا برق ، طالِع مـنزلا بالأبرق واحـد السحاب لها حُداء الأينق

أو مثل التفجع فى الجزع باستدعاء البكاء ، كقوله :

كذا فليجلّ الخطب ، وليفدح الأمرُ وليس لعين لم يفِض ماؤها عـذرُ

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده ، كقوله :

منابِتَ العشب ، لا حامٍ ، ولا راعى مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بتهنئة فـريقه بالراحة من ثقل وطأته ، كقوله :

ألقى الرماح ربيعـة بن نزار أودى الردى بفريقك المغـوار

ولايفيد هذه الأساليب ، إلاحفظ كلام العرب نظما ونثرا » اهـ مقدمة ص٤٧٢ طبعة فهمى.

ومن هنا كان أهل العلوم كلهم ، من الفقهاء والنحاة وغيرهم ، قاصرين فى الشعر ، لقلة [illegible] ظهم من جهة ، ولخدش ملـكة البلاغة عنـدهم بما يسبق الى محفوظهم وي[illegible]

القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية التى لا حظ لها فى البلاغة . ولقد كان الأزهريون ، ولا يزالون ، يعتقدون أن الأدب والعلم لا يجتمعان . وهم فى ذلك جِدّ مصيبين ؛ ويشهد لهم أننا لم نر أزهريا أحرز فَوْقا فى الأدب ، إلا جاء مقصراً فى العلم ، أو ترك ساحته جملة .

* * *

يساند الأمرين الآنفين ، أننا قومٌ عرب ، والعرب أشد الأمم عصبية وحنينا الى وطنهم الأول وعيشتهم الأولى ؛ لذلك لم تلههم مفاتن ما فتحوا من البلاد والممالك ، عن التغنى بذكر بلادهم ، وعن اتخاذ الشعر القديم نموذجا لهم فى الصناعة وفى الخيال . وأن الحنين الذى هز أبا الحسن علىّ بن جُودِى ، وهو فى رياض الأندلس ، الى نجد ، فأطلق لسانه بقوله :

أحنّ الى ريح الشمال فانها ... تذكرنا نجدا ، وما ذَكَرت نجدا
تمر على ربع أقام به الهوى ... وبدل من أهليه جائمة رُبْدا

وقوله :

خليلىّ ، عن نجد ؛ فان بنجدهم ... مصيفا لبيت العامرىّ ومربعا
ألا رَجِّعا عنها الحديث ، فانى ... لأغبط من ليلى الحديث المرجعا
عزيز علينا ـ يابْنَةَ القوم ـ أننا ... غريبان شَتّى ، لا نطيق التجمعا
فريق هوى منا : يَمَانٍ ومُشئِم ... يحاول يأسا ، أو يحاول مطمعا
كأنا خلقنا للنوى ، وكأنما ... حرام على الأيام أن نتجمعا

أقول : إن الحنين الذى هز هذا الأندلسى الرافه ، الى مرابع نجد ومصايفها ، فأطلقه سجعا مرددا ، وغَرَدا ساحرا ، هو هو الذى يهز المصرى والشامى والأفريقى والسودانى ؛ أو بعبارة أعم وأشمل ، هو نفسه الذى يهز مشاعر كل مسلم الى معاهد الاسلام الأولى ، فيطلق لسانه بمحاكاة أول أسلوب عرفه الاسلام .

* * *

أما بعد ماتقدم ، فاعتبارُ تأثر الأدب العربى ، بالأدب الجاهلى ، جناية ، هو — كجناية الآباء على الأبناء التى اشترعها الحكيم الشاعر أبو العلاء المعرى ، بقوله : هذا جناه أبى علىّ ، وما جنيت على أحد — اعتراض على الطبيعة ، أو على شىء غير الطبيعة ، بوّأ الأدب الجاهلى من الأدب العربى هذا المُبوَّأ ، لا اعتراض على جوهر الأدب .

وتحقيق قضية هذه الجناية ، فى المقال التالى ، إن شاء الله ؛ فلقد طال هذا الحديث ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

فى حفلة المحمـــــل

دورات الجمل السبع

كثر كلام الناس فى « حفلة المحمل » و « دورات الجمـل السبع » ، فمنهم من يحب التمسك بها إبقاء للقديم على قدمه ، ومنهم من يرى إلغاءها لأنها من المحدثات التى لم تؤثر عن الصدر الأول .

وإرشادا للحق فى هذه المسألة أقول :

لحفلة المحمل ناحيتان : ناحية تاريخية ، وناحية دينية . فأما الناحية التاريخية فلا أعرض لها ، ولا أذكر فيها إلا ما هو معروف من أن العصر الذى نشأت فيه فكرة المحمل ، لم يكن من عصور الرقى الفكرى والدينى ، وإنمـا كان من عصور التأخر والانحطاط التى أضيف فيها الى الدين ما ليس منه .

وأما الناحية الدينية ، فإننا إذا نظرنا الى حفلة المحمل كحفلة يقصد منها الدعاوة للحج ، وخروج الكسوة بمظهر يلفت إليها أنظار المسلمين ، فيثير فى نفوسهم الرغبة فى أداء فريضة الحج ، وجدناها حفلة لا يأباها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، مادامت مبرأة من كل ما يسىء إليها ، ويشوه وجهها السمح . ذلك أن الاسلام لا يأبى أن يأخذ بأية وسيلة من شأنها أن تعين على إظهار شعيرة ، أو الإعلان عن سنة .

فهو مثـلا ، لا ينكر المحراب لأنه وسيلة الى معرفة القبلة ، ولا ينكر مدفع الظهر لأنه وسيلة لتحديد وقت الصلاة ، ولا ينكر إعلاء صوت الخطيب بأداة تضخيم الأصوات ، مادام ذلك وسيلة لإبلاغ صوت الحق الى الناس ، وإذاعته بينهم .

وإنمـا الذى يأباه الدين ، هو العادات المنافية له ، المخالفة لأغراضه ، أو التى تثير فى نفوس الناس اعتقادا غير صحيح فى الأحكام الدينية .

فمن ذلك ما يحدث عادة يوم الاحتفال بالمحمل من اختلاط النساء بالرجال على صورة شائنة ، تنكرها الآداب ، وتمجها الأذواق ، ولا ترضى بها الشرائع والأخلاق .

ومن ذلك دوران المحمل سبع مرات كما يدور الطائفون بالبيت ، واستلام مقوده كما يستلم الحجر الأسود ، فى إجلال وتقبيل .

فالإسـلام لا يعرف طوافا إلا حول البيت ، ولا يعترف بالتقبيل والتعظيم لشىء يستلم

إلا للحجر الأسود ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطف بشيء إلا بالبيت ، ولم يقبّل شيئا إلا هذا الحجر ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبلتك » .

هذه هى روح الاسلام ، ومبادئ الاسلام ، التى يعرفها الفقهاء ، ويقررها الأئمة . يقول الفقهاء : « إن وقوف الناس — غير الحجاج — يوم عرفة مجتمعين فى مكان تشبها بالواقفين بعرفات ، مكروه كراهة تحريم ، لأنه مخترع فى الدين ؛ إذ الوقوف إنما عهد قربة بمكان مخصوص ، فلا يجوز فعله فى غيره ، كالطواف ونحوه . ألا ترى أنه لا يجوز الطواف حول مسجد أو بيت سوى الكعبة » .

هذا نص صريح من كلام الفقهاء . فدورات المحمل إذاً صورة لما يحدث من الطواف حول البيت ، فى ذاتها ، وفى عددها ؛ وهى مخترعة لا يعرفها الدين ، وليست ضرورية فى الدعاوة للحج ، لأنه يمكن أن تتم هذه الدعاوة على خير وجه بدونها ؛ وكذلك القول فى استلام المقود وتقبيله ؛ وهما بعد ذلك صورتان تشوهان وجه الدين ، وتعينان خصومه على ما يبتغون من تلمس أسباب الطعن فيه ، والغض منه . فمن الطبيعى إذاً أن يتناولهما هذا النص الفقهى الذى قدمنا ، وأن يعمل أولو الأمر على حماية الناس من اعتقاد أنهما من الدين ، وحماية الدين من أن يلصق به ما ليس منه .

وبعد : فهذا هو رأينا فى المسألة من وجهتها الدينية ، أرجو أن يجد القراء فيه ما ينير لهم سبيل الحق والهدى ؟

محمود شلتوت

مما قيل فى المال

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بالله من الفقر . والفقر هو أن لا يجد الانسان حاجته وحاجة عياله ، لا المتفق عليه اليوم من الاقلال مع الكفاف . فالفقر بمعناه الصحيح مذموم لأنه من أكبر القواطع عن ممارسة الفضائل . ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه محمد : يابنى إنى أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل ، داعية للمقت .

وروى عن لقمان أنه كان إذا مر بالاغنياء قال لهم : يأهل النعيم الأصغر، لا تنسوا النعيم الأكبر . وإذا مر بالفقراء قال : إياكم أن تغبنوا مرتين .

وقيل لأفلاطون : لم صار الرجل يقتنى مالا وهو شيخ ؟ فأجاب : لأن يموت الانسان فيخلف مالا لأعدائه ، خير من أن يحتاج فى حياته الى أصدقائه .

فى بلاغة القرآن

« اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير » . عمر بن الخطاب

جلوت لك فى الحديث السابق بعض ما تهدّى إليه عقلى ، واستطف لى بيانه من أسرار البلاغة فى آيتين من آى الذكر الحكيم ؛ ولعلك عجبت منها العجب كله . « وأى شىء أعجب من أن تتجاذبك معانى الوضع فى ألفاظ القرآن ، فترى اللفظ قارا فى موضعه لأنه الأليق فى النظم ، ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى ، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة ، ومع ذلك الأحكم فى الإبانة ، ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة ، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه ؟ » . وهذا من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن وبين هذه الأنواع فى كلام البلغاء . فنظم القرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا بحيث يبنى هو عليها لأنها فى أصل تركيبه ، ولا تبنى هى عليه ؛ فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ، ولا شىء من مثل هذا يصح فى الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره فى موضعه إذا تبدلته منه ، فضلا عن أن يفى به ، وفضلا عن أن يُربى عليه ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع . فكأن البلاغة فيه إنما هى وجه من نظم حروفه ؛ بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء ، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها ، وتبنى عليه ؛ فربما وفت وربما أخلفت ، وهى لو رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها فى مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف ، بل لكان عسى أن يصح ويجود فى مواضع كثيرة من كلامهم .

كم حارت العقول الواصفة فى وصفه ، وكلت الألسنة البارعة عن نعته ، لأنه المطمع بظاهره فى نفسه ، والممتنع فى باطنه بنفسه ، ولأنه لا يشبه كلاما تقدمه ، ولا يشبهه كلام تأخر عنه ، ولا يتصل بما قبله ، ولا يتصل به ما بعده ، فهو الكلام القائم بنفسه ، البائن من جنسه ، العالى على كل كلام قرن اليه وقيس به . وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من غرائب الفصاحة ، وثواقب البلاغة ، ونوادر الكلم ، وينابيع الحكم ، ما يعجز الخواطر عن الكلام فيه ، والإيضاح عن عجائب ما فيه . حقا إنك « لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضى فى وصفه ، حتى لا ترى فى اللغة كلها أدل على غرضك ، وأجمع لما فى نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة « الإعجاز » .

« ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذى يستنفد كل ما فى المعقول البيانية من الفكر ، وكل ما فى القوى من أسباب البحث ، كأنما ركب على مقادير العقول والقوى ، وآلات العلوم وأحوال العصر المغيبة » .

« ولن تجد فى وصفه كلاما أدق ولا أبرع ، ولا أخصر ولا أجمع مما وصفه به من أوتى الحكمة وجوامع الكلم ، الذى لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا ؛ فهو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، وهو الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . ولعل بعض من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ، ماليس عنده ، ولا يبلغ قدره ؛ كلا والذى حرم التزيد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ! لا يظن هذا إلا من ضل سعيه (١) »

لن تجد فى وصف القرآن أحسن من وصفه صلى الله عليه وسلم : حدث الترمذى أن ابن أبى طالب رضى الله عنه سمع الرسول وهو يقول : « أما إنها ستكون فتنة » . فقال له : فما المخرج منها يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله تعالى ؛ وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ؛ ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛ وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به » ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم » .

أضف الى هذا أنه كلما دار الزمان ، وتقدمت العلوم ، وتكشفت للإنسان أسرار الكون ، استبان للناس من عظمة القرآن ، واتضح لهم من وجوه إعجازه ما لم يدر لهم ولا لآبائهم بخلد . فهذه أسرار طبية ، وهذه أسرار فلكية ، وتلك أسرار زراعية كشف عنها العلم الحديث ؛ وإلى الأخيرة نلفت النظر لطرافتها وغضارتها :

قال الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

لقد ساءلت نفسي وأنا أتدبر هذه الآية : لماذا كانت هذه الجنة بربوة ؟ ولماذا عبر الله عن سقياها بإصابة الوابل ؟ وهل لذلك من فائدة في كونها تؤتى أكلها ضعفين ؟

قال الخليل : الربوة : أرض مرتفعة طيبة ، وخص الله بالذكر التي لا يجرى فيها ماء من حيث العرف في بلاد العرب ، فمثل لهم ما يحسونه ويدركونه . وله رحمه الله :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت عن المعاطش واستغنت بسقياها
فمال بالخوخ والرمان أسفلها واعتم بالنخل والزيتون أعلاها

وقال ابن عباس الربوة : المكان المرتفع الذي لا يجرى فيه الأنهار ، لأن قوله : « أصابها وابل » يدل على أنها ليس فيها ماء جار . قال أبو حيان : وتفسير ابن عباس الربوة بالمكان المرتفع الذي لا يجرى فيه ماء إنما يريد المذكورة هنا ، لقوله : أصابها وابل ، فدل على أنها ليس فيها ماء جار ، ولم يرد جنس الربوة لا يجرى فيها ماء ، ألا ترى الى قوله تعالى « ربوة ذات قرار ومعين » ؟ وخصت بأن سقياه الوابل لا الماء الجاري فيها على عادة بلاد العرب بما يحسونه كثيرا ؛ وخص الربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها » . فهل من الحق أن القرآن عبر بإصابة الوابل عن السقيا لأن هذه الربوة التي أشار إليها لا تجرى فيها الأنهار كما روى عن ابن عباس ، أم جريا على عادة بلاد العرب ، وتمثيلا لهم بما يحسونه ويدركونه كما يقول غيره من المفسرين ؟ عندي أن القرآن لم يرد ذلك ، ولم يذهب إليه ، وإنما ذهب الى سر عظيم كشف عنه العلم الزراعي : فقد أثبت علماء النبات بعد تجارب أخطأها الحصر وما أخطأها الصواب ، أن الحدائق التي تنشأ في الأراضي المرتفعة تغل أحسن من الحدائق المنشأة في الأراضي الواطئة ، لأنها بعيدة عن الرشح الزائد ، والماء الراكد ، ولأن الهواء يتخلل بين طبقاتها في يسر وسهولة ، فيساعد على التأكسد وصلاح المواد الغذائية ، التي تمتصها الشعيرات الجذرية طيبة سائغة وتغذى بها الساق ، والأوراق والزهور ، فيزكو الزرع ويستغلظ ويستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ويؤتى أكله ضعفين بإذن الله .

ولقد أثبت هؤلاء العلماء أيضا أن أحسن طريقة للسقى ، طريقة المطر الصناعي ، لأنه يزيل ما على الأشجار من أوضار ، فتتفتح مسام الأوراق ، وتسهل عليها الفتح والتنفس ، أو « التمثيل الكلوروفلي » .

ولأنه ينشر الماء على سطح الأرض بالتساوي ، فتأخذ منه كل بقعة حاجتها ، ولا تتعرض الأشجار والنباتات للأذى . فهذا سر إيثار « الربوة » وسر « إصابة الوابل » كما بينه العلم الحديث ؛ وجاء بيانه مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

السيد أحمد صقر



المستشرق إميل ديمير جهام الفرنسى
يشهد بأن الاسلام دين عالمى عام

أو فدت جريدة (لا بورص اجيبسيان) مندوبا لها الى أشهر رجالات التفكير العالى فى فرنسا لمعرفة آرائهم فى موضوع (فرنسا والاسلام) ، ونشرت له فى عدد ٢٧ مارس من هذه السنة كلاما للمستشرق الجليل إميل ديمير جهام تحت العنوان المتقدم صدرته بقولها :

« بعد أن نشر إميل ديمير جهام (Emile Demergham) بحوثا على جوزيف دوميستر وتوما مور ، ومفكرى عهد النهضة الأوربية ، رأى نفسه مأخوذا بروحانية الاسلام وخاصة بناحيته الباطنية ، فعُنى منذ سنين بدراسة كل ما يختص بهذا الدين . فبعد أن نظر فى كل ما صادفه من عادات المراكشيين وتقاليدهم الدينية ، ترجم (خمرية) عمر بن الفارض الصوفى سلطان العاشقين وشرحها للشيخ عبد الغنى النابلسى . وقد نشر كتابا أسماه (حياة محمد) ، وهو عمل نهائى فى سيرة النبى ، أبان فيه عن ألمعية ، وتفوق فى بعد النظر ، وعن مواهب فى الاستشهاد بالتاريخ ، وخاصة عن الميل الى ديانة التوحيد التى نشأت فى البلاد العربية ، ولم تغب عنه عظمتها وقوة انتشارها باعتبار أنه كاثوليكى وفرنسى الجنس .

« إن إميل ديمير جهام يشتغل منذ زمان طويل فى عمل كتاب على « حياة الأولياء المسلمين » سيملأ نشره أهل المعرفة غبطة ، وسيعتبره القارئ الغربى البعيد عن هذه الأمور كشفا . هذه الدراسة ، كما يسره الاعتراف به ، قد سمحت له بالتروض على « الصبر » و « الفقر » و « التوكل » ، وهى الثلاث الفضائل الاسلامية المحض . ولا يوجد أمامنا أمثل من ديمير جهام ليشفى غلتنا فيما نحن بسبيله من الاستفتاء الذى شرعنا فيه . ذلك لأنه مع إكبابه على دراسة النصوص العربية ، تضلع فى معرفة العقلية الاسلامية لأهل أفريقا الشمالية . فاليك ماقاله لمندوبنا :

« إن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطا بتسمية القرآن ، يلوح لى أنهم معدون جغرافيا وروحيا لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وأفريقا . فهذا الارتباط الذى لابد منه دون شك لحفظ التوازن الروحى للعالم ، وهذا

الموضع من قلب الكوكب الأرضى من جاوة والهند الى المغرب ، يظهر أنه اختص هذه الكتلة المؤلفة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز الثقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية العناصر المختلفة — وقد صار ذلك أشد وضوحا اليوم — فى أوروبا التى يمزق بعضها بعضا أمام نظرها الآن .

« للمؤرخ ظاهرة فى هذا الموطن يفرض عليه تسجيلها ، وهى أن أساس التقليد التاريخى المشترك بين أوروبا والعالم الاسلامى هو الوحى الذى أنزله الله الى ابراهيم ومن جاءوا بعده ، ومنهم موسى وعيسى ؛ والثقافة اليونانية التى نقلها العرب الى الغرب مع رياضييهم وفلاسفتهم : أفلاطون وأرسطو وبلوتان من مصر ؛ وفكرة القانون والنظام الشرعى الذى كان قائما فى روما .

« فليس يدهشنا والحالة هذه أن الضمير الاسلامى يستنكر ، جريا على مبدئه وغريزته ، كل مذهب يدعو الى العنصرية والنيتشية (١) والى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، والى أية حكومة استبدادية ، ذهابا الى أن الله قدس الشخصية الانسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الاسلامى المرموز اليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضمانا لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدة وجودها من واجب الوجود المطلق ، التى يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الأنبياء ، تتساوى كلها فى قيمتها وفى تلاشيها أمام رب العالمين ، ولكن ما أوتينه من الإلهام الإلهى لا ينسخ . وقد وجه الاسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد منه بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أربعة آفاق الأرض كل سنة محرمين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عارى الأجسام يتصببون عرقا ، ويلفحون كربا .

« إن الشعوب الاسلامية والشعوب المسيحية التى لم تصبأ الى الوثنية الحديثة ، تستوى فى اكتوائها بتغلب الظلمة والمتمذهبين بالماكيافيلية ، وبالخضوع لفاتحين متغشمرين ، فلا شىء يمنع أن يكون قد وقر فى صميم ضمائرهم الايمان بالمكانة العامة للعلم ، والعدالة ، وقدسية الأمر الواقع » .

(مجلة الأزهر) : إنا مع شكرنا للأستاذ ديمبرجهام المستشرق على حسن نظره فى الاسلام ، ننكر عليه صرفه لمدلول آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عن مرماها الدينى الى مرمى اجتماعى ، وخاصة فى موطن كبير الدلالة على مهمة الاسلام ، وعلى ميزته على سائر الأديان . فقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ليس معناه : وكذلك جعلناكم أمة فى بلاد تصلح لأن تكونوا فيها جماعة اتصال بين الشرق والغرب ، ولكن معناه : وكذلك

(١) النيتشية : مذهب فريدريك نيتشه الفيلسوف الالمانى . وقد أسسه على وجوب تربية القوة المحبوبة والارادة بصرف النظر عن كل اعتبار روحى أو إنسانى ، وهو يعتبر الرحمة والعطف ضعفا فى النفس وخورا فى الطبيعة .

جعلنا كم أمة هى من عقائدها وأصولها وآدابها على الصراط السوى ، بعيدة عن الإفراط والتفريط ، لتكونوا شهودا على غيركم فى غلوهم وتقصيرهم ، وخروجهم عن سواء السبيل فى عقائدهم وتقاليدهم . وهذه أمانة أدبية لم تحمَّلها أمة غير الأمة الاسلامية ، وإناحذرا من أن تتحول عن معناها بمثل ماذكره الأستاذ ديميرجهام رأينا أن نعقب على قوله بهذه الملاحظة .

الاسلام والعصر الراهن

للكاتبة المغربية (سيدة سافيترى)

هذه السيدة المغربية تجيد الفرنسية الى درجة التأليف بها ؛ ألفت كتابا فى الإسلام باسم (الإسلام والعصر الراهن) وصفه المسيو جاك نارجو فى جريدة (البتى بلو) الباريسية بقوله :

« إن هذا الكتاب سيسهل كثيرا على الأوربيين معرفة الدين الاسلامى ، وإنه سيعدل آراء ضالة عنه ، ويكشف عن أصوله القيمة للانسانية المتجهة بمجموعها نحو مدنية فاضلة » .

وقالت السيدة سيدة :

« نحن معشر النساء المسلمات لا نزال بعيدات عن الآراء الغربية وكلها فى مصلحة الاسلام . أما اللاتى أخذن طريقهن فى الترقى على الطراز الغربى فلا نظن أنهن سعيدات . فان المرأة التى تتمنى أن تتحرر لترتع فى الملاذ الدنيوية لم تفهم الغاية التى خلقت من أجلها ، ولا مثلها الأعلى وقيمته بالنسبة لها .

« أما خلاصة ما أريد قوله ، فهو أن لدى المسلمة التى تريد أن تعقل من عناصر إيمانها قاعدة صالحة لأن تقيم عليها حياة سعيدة . فهى ليست مضللة بعقيدة الخطيئة الأولى ، ولها أن تتجه الى الحياة بقلب نقى ، متتبعة مثلا أعلى لا غبار عليه ، وشاعرة بقيمتها الذاتية التى لا نزاع فيها » .

ولم تهمل السيدة سيدة أن تلم بمسألة تعدد الزوجات ، وهى المسألة التى اتخذها خصوم الاسلام تكأة للنيل منه ، قالت :

« أما مسألة تعدد الزوجات فهى تشريع حكومة تعترف بالقوانين الطبيعية بغير نفاق ، ولا هرب من التبعات . فالاسلام لا يوجب تعدد الزوجات إيجاباً ، ولكنه يسمح به . والاسلام بقبوله تعدد الزوجات استطاع أن يحرم الزنا على الرجال والنساء » .

نقول : لقد أحسنت السيدة سيدة كل الاحسان بعملها الجليل الذى يقول عنه محرر البتى بلو إنه يزيل كثيرا من ضلالات الأوربيين عن الاسلام ، فما أولاها بقول المتنبى :

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام
وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا فى العدد السابق أن خلافا نشب بين أبى حنيفة وصاحبيه فى لزوم الوقف وعدمه ؛ وأن مذهب أبى حنيفة هو عدم لزومه ، بخلاف الصاحبين فان مذهبهما لزوم الوقف وتأبيده . فنذكر اليوم بإيجاز أدلة كل من المذهبين ، ولكن يجدر بنا أن ننبه قبل ذلك الى أن أباحنيفة لا ينكر ألبتة مبدأ الوقف ، فهو مبدأ متفق عليه ، بل على أنه قربة الى الله عند الجميع .

فمن أدلة الصاحبين :

(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه ، فما تأمرنى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت حبست أصله وتصدقت بثمرته . فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث . . . وقد أشهد عمر فى زمن خلافته على كتاب وقفه نفراً من المهاجرين والأنصار . قال جابر بن عبد الله : فما أعلم أحدا ذامقدرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ولا توهب ولا تورث .

فحادثة عمر رضى الله عنه وما يتبعها من رصد موسرى الصحابة الأعيان وإطلاق غلاتها على الفقراء ، آية على أن العين الموقوفة يمتنع التصرف فيها بالبيع ونحوه . وهذا هو معنى لزوم الوقف عند الصاحبين .

(٢) استمرار عمل الأمة الاسلامية من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حادثة عمر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم خلفاً عن سلف ، وجيلا بعد جيل ، على وقف الأموال وحبسها أبدا . فقد وقف أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير بن العوام وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، أموالا على سبيل التأبيد ، واستمر العمل بعدهم الى يومنا هذا من غير نكير . وهذا إجماع عملى على خلاف قول الإمام أبى حنيفة ، وهو حجة شرعا .

(٣) أن نية الواقف يوم أشهد على وقفه كانت قائمة على تأبيد ما وقف ، ليستديم بهذا التأبيد استمرار المثوبة من الله ما دامت منفعة وقفه جارية على أهلها حسب ما شرط فى إشهاد وقفه . فلو قدر الواقف فى دخيلة نفسه عدم لزوم الوقف وانحلال الموقوف بعد موته ليقسم بين ورثته لما أشهد على كتاب وقفه .

هذا تلخيص ما اعتمد عليه الصاحبان فى التدليل على ما ذهبا اليه من لزوم الوقف .

أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فقد استدل على عـدم لزوم الوقف ، وجواز الرجوع فيه من الواقف ، أو التصرف فيه بالبيع والشراء والهبة ، بما يلى ملخصا :

(١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله سبحانه وتعالى » . ومعنى الحديث ألا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته . فاللازم عن هذا الحديث عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف . وإذاً يكون الوقف غير لازم .

(٢) ما روى عن شريح رضى الله عنه أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس . . وقد ذهب صاحب البدائع الى أن الأموال الموقوفة كان بيعها محظورا فى الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أباح بيعها ، وتلك الإباحة صريحة فى جواز التصرف فى الموقوف وعدم لزومه .

(٣) مما يستدل به لمذهب أبى حنيفة أيضا ما حرره العلامة الكمال بن الهمام ، وخلاصته : أن حقوق العباد لم تنقطع عن الموقوف ، فلهم حق الانتفاع به زراعة إن كان مما يزرع ، أو سكنى إن كان مما يسكن ، مثلا ؛ وبقاء الحقوق فى الموقوف دليل بقاء الملكية فيه ، ولا ملك لغير الواقف من العباد اتفاقا ، فلزم عن تلك المقدمات المسلمة أن يكون الملك للواقف . ويؤيد هـذه القضية أن للواقف نصب النظار على وقفه وعزلهم ، وصرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وملك التصرفات مجتمعة أو منفردة أمارة على بقاء الملكية فى يد الواقف وعـدم زوالها عنه .

(٤) أنه يلزم على قول الصاحبين أن يخرج الموقوف عن ملك الواقف الى غير مالك ، وهو خلاف المعهود ، على أنه غير معلوم من مبادئ الشريعة .

هذه هى أدلة الفريقين باختصار . ولا أدرى كيف يقع بين الإمام وصاحبيه هذا الخلاف ، وكيف تترتب عليه آثاره فى يومنا الراهن بعـد أن نقل عن الامام رضى الله عنه أنه يستثنى من قاعدته الجارية على عدم لزوم الوقف حالة أخرى ، وهى أن يصدر بالوقف حكم حا كم . ومعنى ذلك أن حكم القاضى يرفع الخلاف بين الامام وصاحبيه ، فيصبح الوقف المقضى فيه بحكم القاضى وقفا لازما عند أبى حنيفة .

وبدهى أن عهدنا الراهن قامت فيه خصومات حول الحبوس كلها تقريبا ، فما من وقف إلا وقد عرضت أعيانه وغلاته على القضاء فيقضى فيه قضاءه ؛ وما من وقف إلا اتصل به علم القضاء فيقول فيه كلمته ، فأصبحت الأوقاف لازمة عند أبى حنيفة تطبيقا لهذا الاستثناء ، ولقاعدة « كل حكم من القاضى يرفع الخلاف » ، فلا أدرى بعد ذلك مدى للخلاف ، ولا أثراً يترتب عليه ؟

عباس طه

الفتح الربانى :

تم الجزء الثانى عشر من كتاب الفتح الربانى وهو جامع لمسند الامام احمد بن حنبل . قام بترتيبه وتبويبه فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وقد وضع عليه شرحا أسماه « بلوغ الأمانى » لا يترك حاجة فى نفس قارئه إلا وفاها . فجاء عملا جليلا يشكر عليه الأستاذ . وفقه الله لاتمامه ونفع المسلمين به .

عنوانه عطفة الرسام رقم ٥ بالغورية بالقاهرة .

بين صديقين :

هذا عنوان كتاب وضعه حضرة الأستاذ الأديب الشيخ احمد جمعه الشرباصى الطالب بكلية اللغة ، موضوعه تحاور بينه وبين صديق له ، أهداه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وقال فى إهدائه : « هذا كتاب تنبعث منه بوادر الثورة الاصلاحية التى سيقوم بها الشباب فى المجتمع عما قريب » . وكتابه يشمل عددا وفيرا من عللنا الاجتماعية ، وآراء جديرة بالعناية لعلاجها . ولكن مما يعيبه ويضع من قيمته ، صراحته فيما يجب أن يكتم ، بل فيما الخير كله أن يكتم ، من الاعتراف بالانحرافات الخلقية ، والرعونات الشهوانية . وإنا لنأمل فى الغيرة الملتهبة للأستاذ أن يرأب هذا الصدع فى أسلوبه ليكون ما يجىء منه جميلا كله .

ثورة الاسلام وبطل الانبياء : أبو القاسم محمد بن عبد الله

للاستاذ الأصولى الجليل محمد لطفى جمعه جولات علمية يقوم بها فى أثناء اشتغاله بالمحاماة يأتى فيها بالطريف الغض من الدراسات ، فاذا ألم بالقديم الذى روضته الأقلام ، جاء بأسلوب فيه يكشف منه نواحى جديدة تتطلبها النزعة العقلية فى العصر الراهن . عرفت للأستاذ هذه الموهبة الثمينة فصار لما يكتبه أثر بليغ فى توجيه الثقافة قل فى الكتاب والمؤلفين من يساويه فيها .

وقد أتحف المطبوعات العربية حديثا بكتاب جليل القيمة أسماه (ثورة الاسلام وبطل الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله) موضوعه دراسة تفصيلية للبيئة العربية والنشأة المحمدية ، فجاءت من خير ما كتب على أسلوبه الذى أشرنا إليه ، عالج فيه موضوعات لم يعالجها مؤلف قبله ، وكشف عن نواح تعتبر ذات دلالات حاسمة فى تقدير نفسية النبى وسمو نشأته .

فنثنى على همة الأستاذ الجليل محمد لطفى جمعه ، ونرجوه أن يتابع هذه السلسلة القيمة حتى يأتى بجميع ما تشمله السيرة المحمدية من بحوث ، على أسلوبه هذا ، فهو من أفعل الأساليب فى تجلية الحقائق ، وفى بناء فكرة صحيحة ثابتة للقارئ .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

فى احتفال الأزهر بليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم

احتفل الجامع الأزهر المعمور فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٥٩ باحياء ذكرى المولد النبوى الكريم ، فاحتشدت فيه ألوف كثيرة من أقطاب العلم ورجال الدولة وطلبة العلم ووجهاء الناس ، وبعد تلاوة ما تسنى من آيات الكتاب الحكيم ألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبة طنانة جمعت بين الحكمة الدينية والبيان الباهر ، فكانت قبسة من نور الحق أفيضت عليه ، فأشعها على الحاضرين ، وحملتها موجات الأثير الى جميع أكناف الأرض .

لا جرم أن فضيلة الأستاذ الإمام قد جمع من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وعظم خصائصه فى صحف معدودة ، وبعبارات هى غاية فى السمو الكتابى ، ما ضاقت عنه المطولات ، فكان ذلك منه إعجازا فى الإيجاز ، لا يعرف قدره إلا من عانى هذه المواقف . واختتم فضيلته الاحتفال بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك معز الاسلام ، ومؤيد الدين .

قال فضيلة الأستاذ الامام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، به نستعين ، وعليه نتوكل ، ومنه نطلب التوفيق والسداد ، والهدى والرشاد .

رسولَ الله محمد بن عبد الله ! عليك صلوات الله وتحياته وسلامه وبركاته ، ما ذرّ شارق ولمع طارق . خصصت بصفات ميزك الله بها عن سائر ولد آدم ، فى جسمك ، ونفسك ، وعقلك ، وعلمك ، وخلقك ، ولسانك ، وبيانك ؛ وأكمل لك هذا بما لم يؤته أحداً من خلقه ؛ فأنت الشجرة المباركة الكاملة فى دوحة الانسانية ، أخذت أكمل ما فى الدوحة من خصائص ثم آتت أحسن ما تؤتى شجرة مباركة من ظل وثمر .

أيها السادة :

كلما تعاقبت الأيام على الحوادث أبلتها ، لكن جسيمات الحوادث يزيد مرّ الأيام ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويكشف عن جمالها وبهائها ، وقوتها وعظمتها . وحادث ميلاد النبي العربى الأمى من أكبر الحوادث خطراً ، وأبعدها أثراً . غيّر وجه التاريخ ، وأفاض على الانسانية من الخير والبركة ، والعلم والعرفان ، ما لم يكن لها به عهد من قبل . ولكل نوع من الخليقة مثال

يخال إن لم يكن موجوداً ؛ وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المثال الكامل من نوع الانسانية ، إذا نظرت إليه من جميع أقطاره ونواحيه ، بهرك وملأك إعجاباً ، وقهرك على التأمل والبحث .

وإذا كان سرّ الوجود لا يزال محجباً ، والناس تجدّ فلا تصل إليه ، ولا تدرك إلا بعض الخصائص ، وأمامهم إليها سفر طويل ، ومراحل لا نهاية لها : « ما أشهدتهم خلقَ السموات والأرض ولاخلق أنفسهم » ، « أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم » ، فكذلك سرّ العظمة المحمدية لا يزال محجباً ، ولم يعرف الناس إلا بعض الخصائص ؛ ولا يزال سرّ العظمة مبرقعاً بالجلال والجمال ، منيعاً بروعة الضوء وقوة النور ، لكن الآثار تهدى العارفين ، وتسوق أرباب البصائر الى العظة والاعتبار .

وإذا كان الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، قد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم أمينا على وحيه ، مبلغا أكمل دين وأتم نعمة ، وأقوم هدى وأقوى رشاد ، واختاره خاتم الأنبياء ، واصطفاه للانسانية بعد أن قطعت مراحل شاسعة فى سبيل الكمال ، واصطفاه للعالم جميعه أحمره وأسوده ، فقد صنعه الله على عينه مثالا كاملا خصه بأكمل الصفات ، وأرفع الدرجات .

وماذا أصنع أنا أو غيرى أمام هذه العظمة التى ترد الطرف كليلا ، سوى أن ألفت النظر الى بعض تلك الشمائل للعظة والذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

كل ما صح فى الروايات عن أوصافه الخلقية ، يدل على أنه منح أجمل صفات الرجل وأكملها : بسط الله له فى الجسم ، ومنحه من القوة ما أعدّه به لمصارعة الحوادث ، واحتمال الشدائد ، والصبر على المكاره ، ليكون رجل جلاد وجهاد ، إذا صارعه الباطل صرعه ، وإذا دعاه الحق نصره . وقد رووا أنه صرع (ركانة) وكان أشد أهل وقته ، وصارع أبا ركانة فى الجاهلية مرات وصرعه ، فهو شبيه فى هذا بأخيه موسى عليه السلام حيث وكز شخصا فقضى عليه ، وقيل فيه : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

وإذا نظرتم الى حسن تدبيره ظواهر الخلق وبواطنهم ، وإلى سياسته العامة والخاصة ، وما أفاضه على الوسط حوله من علم وتهذيب ، وخلق وقوة وعزم وحسن معاشرة ، حتى خرج من هؤلاء الذين لم يدرسوا فى مدرسة ، ولم تخرجهم جامعة ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو وخالد وأبى عبيدة وابن عباس وابن مسعود ، من فحول العلماء ، وجلة الفقهاء ، وأبرع القواد ، ودهاقين السياسة ، وحماة الأخلاق ، وذوى البر والرحمة والشجاعة والنجدة ـ علمتم مقدار ما كان له من الأثر البالغ فى تربية الرجال ، وتهذيب النفوس ، وتطهير الأخلاق .

ولقد كان مثلا أعلى للأبطال فى الشجاعة ، يؤيدها سلاح اليقين بالله . حضر المواقف كلها ثابتا لا يبرح ، مقبلا لا يدبر ، وقد فر من حوله الكماة والأبطال مرات ولم تحفظ عنه فرة ، حتى قال ابن عمر : « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله » .

وقال على : « كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ؛ ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو ، وكان يومئذ أشد الناس بأساً » . ولقد فزع أهل المدينة ، وانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم النبى راجعا قد سبقهم الى الصوت ، واستبرأ الخبر ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول : « لن تراعوا » .

هذه القوة ، وهاتيك الشجاعة ، كانت لله ، وفى سبيل الله ، يصاحبها قلب رحيم ، وصبر لا يفنى ، وحلم لا ينفد . قال فى أُحدٍ لما كُسرت رَباعيته ، وشُجّ وجهه : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » . فقدم لهم العذر بالجهالة ، ودعا لهم بالهداية ، ولم يشارك أخاه نوحا فى الدعاء على قومه ، حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » ، بل قال : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » . ومثله فى هذه الرحمة مثل أخيه عيسى حيث قال : « إن تعذبهم فانهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

كانت أخلاقه القوية الباهرة ، يؤيدها الوحى الإلهى ، والفناء فى امتثال أوامر الله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ـ مادةً لهذا المزيج العجيب الذى يرضى إذا رضى الوحى والكتاب ، ويغضب إذا سخط الوحى والكتاب ، ويغضى عما فرط من أعدائه فى حق شخصه ، ويدعو لهم بالهداية ، ويقول يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولقد دلت أطواره جميعها ، قبل النبوة وبعدها ، على أنه كان سديد الرأى ، قوى الفطنة ، واسع الحكمة . انظر الى تصرفه فى وضع الحجر عند اختلاف قريش على من يضعه منهم ، حيث أمر بثوب وضع فيه الحجر وأمسك كل فريق منهم بطرف من أطرافه ، حتى إذا دنا من موضعه أخذه بيده الطاهرة فوضعه موضعه ، وبذلك أزال الضغينة ، وحقن الدماء .

هذه الحكمة التى كانت قبل النبوة ، زادتها النبوة قوة وثباتاً ، فلم تفارقه فى تبليغ الوحى ، ولا فى الحروب ، ولا فى تأليف الناس ، ولا فى سياسة العامة والخاصة . وكتب السير مليئة بالأمثلة والشواهد التى يخطئها العد ، وتفوق عن الحصر .

أسعده فى هذا كله طيب العنصر ، وشرف النسب ، والحياء ، والتواضع ، والشكر ، والزهد ، والعفة ، والجود ، والمروءة ، وبيان ساحر يملك على النفوس أمرها ، ويقفها موقف المشدوه العاجز .

وسع الناس جميعَهم خلقُه ، فصار أبا رحيما ، وصاروا أبناء بررة ، كلهم عنده فى الحق سواء ، لا يذكر أحدا بسوء ، وإن اقترف أحد سيئة قال : « ما بال أقوام يصنعون كذا » . لم يطو عن أحد بِشْرَه . على أنه كان أعرف الناس بالناس ، وكان شديد الحذر . كان يقول : « أحبكم الىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤن أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » . يكرم كريم الأقوام ، ويتفقد أصحابه لا يغفل عنهم . لكل حالة عنده عتاد . يقرب الأخيار ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة لله وللرسول وللمؤمنين ، وأكرمهم عنده أحسنهم مواساة ومؤازرة . يلبس الشملة والكساء الخشن ، والبرد الغليظ . لا يبيت عنده دينار إلا ديناراً أعده لقضاء دين عليه .

ثابر على الصراط المستقيم ، وثابر على الدعوة اليه ؛ فنى فى الحق ، ولم ير له وجوداً إلا بالحق ، فنعم بلذته ، ونعم بجوار ربه حيا ، ونعم بجوار ربه ميتاً ، فسلام الله عليه يوم ولد ، وسلام الله عليه يوم مات ويوم بعث حيا .

ولقد فاز بكل مادعا به ربه فى دعائه المشهور ، المملوء جمالا وسحرا :

« اللهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلمّ بها شعثى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء . اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : «ما من نبى من الأنبياء إلا أُعطى ما مِثْلهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وروى عنه أنه قال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، واليقين قوتى » .

قفوا عند هذا ، وأطيلوا الوقوف ، وتأملوه وافقهوه ، فما الخير إلا فى فهمه ، وإطالة الوقوف عنده .

لم تكن معجزته قارعة من القوارع ، يراها أهل جيلها ومن حضرها منهم ثم تغيب فلا تعرف إلا بالأخبار والسماع ، فلا عصا موسى وتفجير الينابيع من الأحجار ، ولا شفاء الأمراض المستعصية ، ولا الريح الصرصر والناقة ، ولا الطوفان ، لاشىء من ذلك باق أمام العقل والفهم ، تستمد منه الحكمة ، وتتفجر منه ينابيع البلاغة ، ويشفى أمراض المجتمع ، ويقيم العدل ، ويعرف الناس ما يليق أن يعرف من الغيب ، ويضىء الطريق أمام الانسان فيضع لنفسه أحسن النظم وأكمل القوانين .

لكن القرآن باق لا يبيد ولا ينقطع ، تجدد فى كل حين آياته ، ويتذكر الناس بعظاته ؛ وهو الحصن إذا اشتد الكرب ، والملاذ إذا عميت السبل ، وتشابهت الامور ؛ وهو سفينة النجاة من هذا البحر المضطرب الذى تغشاه الظلمات .

على أساس العقل — كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم — كانت معجزته ؛ وعلى أساس العقل شرعت الشرائع وسنت القوانين ؛ وعلى أساس العقل واجه الاسلام الانسان ووضعه حيث هو ، حيوان ذو عقل ، أباح له الدنيا وزينتها ، ومكنه من الطيبات فى حدود حددها ، ووفّى غرائزه حقها بما يصلحها ، ثم رفع منزلته حتى جعله خليفة الله فى الأرض ، وحبب إليه المعرفة ، وجعلها رأس المال ، وفتح أمامه الطريق واسعاً لإشباع شهوة العقل وفهمه فى الحدود اللائقة به .

على أساس العقل قامت الدولة الاسلامية ، وقام العلماء الصالحون يفسرون الكتاب ، ويوضحون العقائد والشرائع ، فكانوا أئمة الهدى ، ومنار الرشد ، وساسة العدل ، وأساطين الحكمة ؛ وكانوا لله وفى سبيل الله ، لا لأنفسهم ، ولا لأئمة الجور والطغيان . ولما زحزح الناس الأساس ، ولم يرعوا حرمة العقل فى مصائر الأمور ، زحزح الله الخير عنهم ، وأبعدهم عن فقه الدين ، كما أبعدهم عن الدين : « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْنَ غَيّاً » .

على أساس العقل يجب أن يفهم الكتاب ، وتفهم السنة ، وتفسر الآيات ، وينظر الى مصالح البشر . ومن أهدر العقل فقد أضاع الأساس وباء بالخسران .

رأس ماله صلى الله عليه وسلم المعرفة ، فهى تصحح العقيدة فى الغائب والشاهد ، وتفسر آية الكون ، وتسخّر الطبيعة وتذللها للانسان ، وتجلب سعادة الدنيا والآخرة ، وترفه على الانسانية ، وتلطف حدّة الطبيعة وقوتها ، وتعز الأمم وترفع قدرها ؛ لكن على شريطة أن يصاحبها الدين ، وتشدّها الأخلاق ، فإذا فارقت الدين والخلق ، نتجت شر النتاج ، وأمطرت سحبها الشر ، وقذفت صواعق الهلاك ، وكانت وبالاً على الانسانية . فما هذه الشرور الجائحة فى العالم اليوم إلا نتيجة المعرفة بظواهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأنكروه فعاقبهم ، سلبهم بهجة الحياة ، من طمأنينة ، وأمن ، وسلام ، ورضا بالقدر ، وقناعة بما قدره الله .

اليقين هو القوة ، فما اعتزّت أمة إلا باليقين ؛ فهو الذى يدفع الى العمل ، ويسوق الى الأسباب .

اليقين يزيل الراسيات ، ويحول مجرى الأنهار . ينبت الأخلاق الفاضلة إن لم تكن ، ويقويها إن كانت . فهو إيمان بالله وبالحق ، وبأن الحياة الدنيا متاع الغرور ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الموت آت لا محالة ، إن كان مقدورا لا تقى منه البروج المشيدة ، ولا الآطم المحصنة ؛ وأن الجنة أعدت للمتقين المجاهدين فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق ، وفى سبيل الذود عن الوطن

والعرض ؛ وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة ، وأن الغـدوة والروحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ؛ وأن الشهداء فى جوار الله ينعمون . وإيمان بأن الجبان الفارّ عاقّ لله وللوطن ، وخائن للأهل والعشيرة والذرية .

أيها السادة :

لا يصلح أمر هـذه الأمة إلا بالعقل ، والمعرفة واليقين ؛ فلم يذهب مجـدها وعلمها وفقهها إلا بإهدار هذه الأسس ، وبعدها عن فهم الـكتاب وتعاليمه الراشدة ، وعن هدى صاحب الرسالة ، صلوات الله عليه ؛ وقد فرقها الجهل ، وأذهب ريحها عدم استعمال العقل .

قد يكون ذلك الشر الذى تعانيه الأمم بسبب غضب الله وسخطه على عباده ، وبعدها عن الأديان وغلوها فى الإلحاد ، قد يكون سببا فى الأوبة والرجوع الى الله . يقول الله تعالى : « وإذا مسّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا الى ضر مسّه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . فهذه المحن والويلات قد توجه الناس الى الواحد المعبود ، يطلبون النجاة فلا يجدونها إلا عنده ، فى وحيه وهديه ، وقد تنسيهم هذه الشهوات الجامحة فيبحثون عن الشفاء . ومصائب الأمم لا تنسى سريعا ، وضرها لا ينكشف قريباً ، وآثاره تبقى ماثلة طويلا ، وفى هذه الحقبة تفكر فى الدين وتعود اليه ، إن شاء الله .

أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بمولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسأل الله لى ولـكم عونا وتوفيقا ؛ وأسأله لى ولـكم عيش السعداء ، وإيمان الأصفياء ؛ وأسأله للعالم عقلا يدنيه من الصواب ، ويشفيه من الجنون ، إنه اللطيف الرحيم .

وأسأله لبلادنا العزيزة طمأنينة وسلما ، وسعادة وهديا ، ولصاحب الجلالة العزيز المحبوب مليكنا المعظم ﴿ فاروق الأول ﴾ رعايةً من الله وعزاً ، وأن يـكون عونا على الحق ، ناصراً للدين .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركته ؟

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

الحرب فى شريعة الاسلام

لما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الاسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية « فاصفح عنهم وقل سلام » ، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للانسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكُذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ؟ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلىّ المصير . قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

هذا ولم يُغفل الاسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور .

وهـذا من مميزات الحـكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لا ستئصاله ، مع عـدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله فى نظر الحـكومة النبوية شخص مريض تعمل لا ستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض المضالة . والاسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتدٍ بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق فى الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذى وسعت رحمته كل شىء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة فى مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف فى سفك دمائهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مُثُلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين الى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمـدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حمل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الاجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان ، واتقوا الله إن الله شـديد العقاب » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

بهذه القيود الرحيمة ، وفى هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه الى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم فى حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هنا لا بد لنا من نفى شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الاسلام ضده ، إذ قالوا : إن الاسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا الى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهى أنزل ليكون رحمة للعالمين .

لا جرم أن الذين يُدلون بهـذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضى ومن عوامل الاجتماع الانسانى ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليجىء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولـكن فيما

بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الانسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والانسان أيضا . وقد أشار الله الى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالانسان : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولـكن الله ذو فضل على العالمين » . وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فانهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الـكتاب الـكريم بهذا فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبِيَع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، الى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هـذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حـدث بين البروتستانتية والـكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أو لم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لمحمد صلى الله عليه وسـلم فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر الى المـدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، ودك صروح العدل ؟

يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنـكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها مادام الانسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يُتفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوَّه بهذا الحكم . ولو كان ذُكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكر على هذا القول بالدحض ، ولحض أهله على عدم الإصغاء اليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الاسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنة التى وُعد بها المؤمنون بدار السلام ، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الاسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الاسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لاهم لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الاسلام بإقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت اليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر لا فى سبيل شيء آخر . فاذا كانت هذه الأمم التى وصلت من المدنية الى درجة رفيعة ، تضطر الى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكوُّن لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ما حُمِّلته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالانسانية من الظلمات الى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الاسلام بالحرب ، كضرورة لا محيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِّله الاسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كِسَف من الضلالات ، وتنوء تحت آصار من الأوهام ، الى عهد حرية التعقل والنظر ، والبحث والتدليل ، والمسئولية الشخصية ، وهى الثلاثة الأركان التى ابتنى عليها صرح التطور الأخير للانسانية المتجهة الى كمالها المنشود .

محمد فريد وجدى